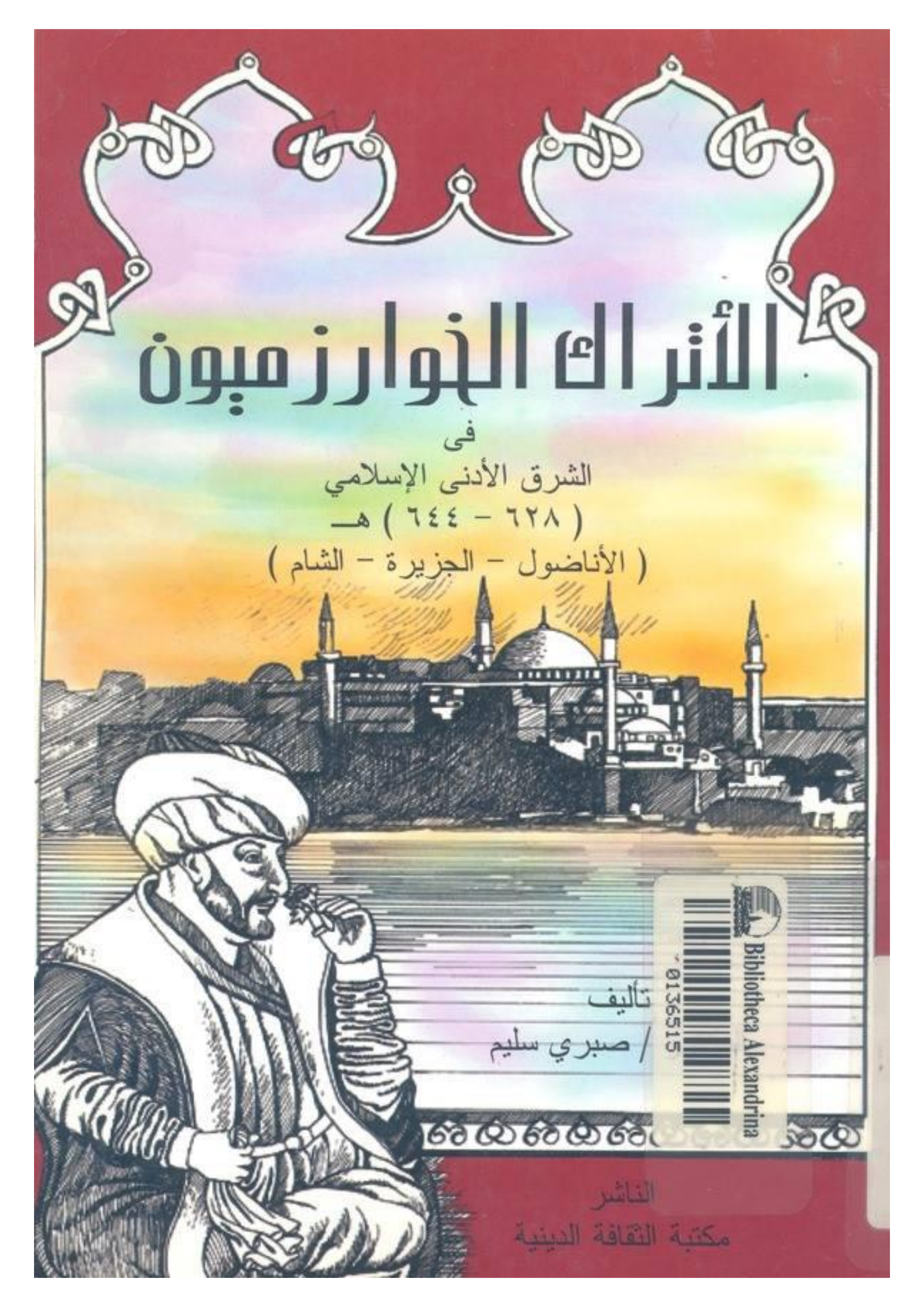

الأتراك الخوارزميون
فى
الشرق الأدنى الإسلامي
(٦٢٨ - ٦٤٤) هـ
(الأناضول - الجزيرة - الشام)
تأليف
/ صبري سليم
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
Bibliotheca Alexandrina
0136515

الأتراك الخوارزميون
فى الشرق الأدنى الإسلامى
(٦٢٨ - ٦٤٤) هـ
(الأناضول - الجزيرة - الشام)

تأليف

الدكتور/ صبرى سليم

جامعة القاهرة - فرع الفيوم

كلية الدراسات العربية والإسلامية

طبعة

١٤١٩هـ / ٢٠٠٠م

الناشـــر

مكتبة الثقافة الدينيـــة

٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر

ت. ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

مكتبة الثقافة الدينية

تنويه :

عُرِضَ هذا البحث على الندوة العلمية التي عقدها قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم (جامعة القاهرة) في يوم الخميس الخامس من مارس سنة ١٩٩٨م.

كذلك حظي هذا البحث قبل الطبع بالعرض على الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد أستاذ الدراسات الشرقية بكلية الآداب (جامعة عين شمس) وهو علم مبرز في تاريخ المغول ومن اتصل بهم من الشعوب.

وقد استفاد البحث وصاحبه من ذلك كله، بكثير من التوجيهات الفنية التي أسهمت في تطويره وإخراجه على الصورة الماثلة الآن.

الباحث

د. صبري سليم

تقديم

ظهرت الدولة الخوارزمية في مهدها كياناً سياسياً محدوداً في كنف السلطان السلجوقي بركياروق (٤٦٥ : ٤٨٥)هـ وأخيه السلطان سنجر (٤٩٠ : ٥٥٢)هـ في زمن كانت الدولة السلجوقية لاتزال تتمتع فيه بمظاهر قوتها وآيات عظمتها .

ولم يكن الحكام الأول الذين أختارهم السلاجقة لحكم إقليم خوارزم ينتمون إلى الأهالي فيه من ناحية المكان إلا أنهم كانوا يشاركونهم كما كانوا يشاركون السلاجقة في الانتماء إلى الجنس التركي الذي كان ينتشر في أواسط آسيا : تركستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان وخوارزم والقوقاز .

وقد تعرضت بحوث تاريخية سابقة لدولة الخوارزمية من زوايا متعددة منها على سبيل المثال :

- الدولة الخوارزمية والمغول ، للأستاذ حافظ أحمد حمدي، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٩م.

- الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ : ٦٢٨هـ. للدكتور نافع توفيق العبود نشر جامعة بغداد سنة ١٩٧٨م.

- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية للدكتورة عفاف سيد صبره نشر دار الكتاب الجامعي بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

وقد ركز البحث الأول على علاقة الخوارزميين بالمغول، وانصب اهتمامه على حياة الخوارزميين في إقليم خوارزم موطنهم الأصلي، ثم تابع تحركات سلطانهم الأخير منذ فراره إلى الهند سنة ٦١٨هـ حتى مصرعه في جبال

الأكراد قرب ميافارقين في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وأعطى هذا البحث تفصيلات مهمة عن حياة المغول ونظمهم المختلفة.

واهتم البحث الثاني بالعلاقات بين الخوارزميين والقوى السياسية المتصلة بهم ومنها الخلافة العباسية والغوريون، والأيوبيون، ثم عرض للنظامين العسكري والإداري في الدولة الخوارزمية، وتضمن هذا البحث عرضاً موجزاً لعلاقة الخوارزميين مع الصليبيين في الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري.

وأولى البحث الثالث اهتماماً خاصاً بالجانب السياسي في تاريخ الدولة الخوارزمية، ولم يهتم بجوانب أخرى شديدة الارتباط به والتأثير عليه وبخاصة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

والآن وبعد مرور اثنتي عشرة سنة على صدور آخر هذه البحوث ظهرت خلالها أجزاء مهمة من مخطوطات لم تكن محققة من قبل منها على سبيل المثال :

أ - «أخبار سلاجقة الروم» لابن البيبي وله ترجمتان عن الفارسية إلى العربية .

ب- «نهاية الأرب» للنويري الأجزاء من ٢٦ : ٣٣.

جـ- «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاءوالملوك والنواب» لابن أيبك الصفدي.

كما توفرلي فيها العديد من المصادر التي لم تستند إليها البحوث السابقة منها على سبيل المثال :

أ - «أخبار الأيوبيين» لابن العميد .

obeikandl.com

ب- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» لأحمد بن إبراهيم الحنبلي .

جـ «صدق الأخبار» لابن سباط.

وقد هيأ ذلك لي أن أعرض لفترة مهمة في تاريخ الخوارزميين ترتبط بوجودهم في الشرق الأدنى الإسلامي (الأناضول - بلاد الجزيرة - الشام) بعد مصرع سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي في شوال سنة ٦٢٨ / أغسطس سنة ١٢٣١م.

وأخترت أن يكون منهاج البحث على النحو التالي :

١- تمهيد جغرافي عن بيئة الخوارزميين في موطنهم الأصلي للتعرف على أهم ملامحها التي انعكست على تكوينهم الجسمي والنفسي، وشكلت أنماط حياتهم العملية، وتدخلت أيضاً في تحديد علاقتهم بجيرانهم.

٢- عرض موجز سريع لأهم مواقف التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية.

٣- موضوع البحث ويمتد زمنياً بين عامي ٦٢٨ و٦٤٤هـ، ويتضمن عدة محاور :

أ - التمزق الخوارزمي في أواخر سنة ٦٢٨هـ.

ب- الهجرة الخوارزمية إلى كنف سلاجقة الروم بالأناضول في الفترة بين عامي ٦٢٨، ٦٣٤هـ.

جـ- الفرار إلى بلاد الجزيرة في الفترة بين عامي ٦٣٤، ٦٤١هـ وعلاقتهم مع الأيوبيين والأراتقة والخلافة العباسية.

ء - الارتحال إلى بلاد الشام في الفترة بين عامي ٦٤٢ و٦٤٤هـ، وصدامهم مع الصليبيين في القدس وغزة ويافا.

هـ- التمزق الخوارزمي الأخير أسبابه وأهم نتائجه .

و - الخاتمة .

وأخيراً فقد اجتهدتُ، ولعلي أكون قد أصبتُ، وعلى الله قصد السبيل فهو نعم المولى ونعم المعين.

القاهرة في ١٩ / ٦ / ١٩٩٨م

الدكتور

صبري عبد اللطيف سليم

obeikandi.com

إقليم خوارزم :

يقع إقليم خوارزم في عمق آسيا الوسطى حيث يحده من الشمال بحر آرال الذي يفصله عن منازل قبائل الأتراك القرغيز الذين كانوا يتحركون حول نهر أرتيش في اتجاه الغرب، ويحده من الجنوب مفازة الغز الأتراك التي تفصله عن إقليم خراسان الذي يشمل شرقي إيران[١] . ويحده من ناحية الشرق نهر جيحون «أموريا» الذي يكاد يفصله عن بلاد الأتراك في بلاد ما وراء النهر، كما يحده من ناحية الغرب بحر قزوين حيث يقيم هناك بعض قبائل الأتراك من القبجاق[٢] .

ومن ثمة يمكن القول إن الخوارزميين ينتمون من حيث الأصل إلى الجنس التركي الذي غلب على معظم أجزاء آسيا الوسطى ويؤكد ذلك قول ياقوت الحموي الذي زار خوارزم سنة ٦١٦هـ «وفي وجوههم أثر للترك وفي طباعهم أخلاق الترك، وفيهم جلد وقوة»[٣] .

من هذا التحديد الجغرافي يتضح أن «خوارزم» ليس اسماً للمدينة أي العاصمة وإنما هو اسم للإقليم كله، وتنقسم كلمة «خوارزم» إلى مقطعين «خوار» بمعنى اللحم و«رزم» بمعنى الحطب، وجرى حذف أحدى الرائين استثقالاً لتكرارها، والمعنى الإجمالي أنها أرض اللحم والحطب، أي الطعام الموفور[٤] ويؤكد ياقوت الحموي على ذلك فيقول بعد أن زارها سنة ٦١٦هـ

---

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧ .

(٢) الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص٢٢٥، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٩ (انظر الخريطة) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٢٠ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٥ .

أي قبل سقوطها في أيدي المغول بعام واحد «فما رأيتُ ولاية قط أعمر منها، فإنها على ما هي عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة، كثيرة النذور، متصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة، والقصور في صحاريها قلما يقع نظرك على موضع لاعمارة فيه»(١) .

والمناخ في إقليم خوارزم شديد الصعوبة وبخاصة في فصل الشتاء حيث تجمد مياه الأنهار وبخاصة نهر جيحون، ولايمنع ذلك الأهالي من الحركة أو العمل حيث تعبر القوافل التجارية ثلوج الأنهار ذهاباً وإياباً(٢) .

ويتكلم الخوارزميون اللغة التركية ، وهي تختلف بطبيعة الحال عن اللغة الفارسية التي يتحدث بها أهل خراسان(٣) الواقعة جنوبي بلادهم ويبدو أنهم كانوا ينطقون لغتهم التركية تلك بلهجة خاصة يصفها ياقوت الحموي بقوله «وكلامهم كأنه أصوات الزرازير»(٤) أى العصافير.

أما الصفات الجسمية للخوارزميين فكانت واضحة فهم يمتازون بالطول والضخامة، وفي رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة(٥) .

ويميز عنصر الطول الخوارزميين عن المغول المجاورين لهم والذين كانوا يتميزون بقصر القامة(٦) ولايقلل من ذلك أن جنكيز خان المغولي كان طويل القامة(٧) كما كان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي قصير

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦، والقزويني : آثار البلاد ص٥٢٠ .
(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧، الحميري : الروض المعطار ص٢٢٥ .
(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق جـ٢ ص٦٩٩، الحميري: الروض المعطار ص٢٢٥ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص ٣٩٦ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦ .
(٦) محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشري ص ٢٩٧ .
(٧) الصيني . ف . يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٧ ؛ فلاد يمير ستوف: حياة جنكيز خان ص ٢٣٣ .

القامة[١] فكلاهما كان استثناءً على القاعدة في بني جنسه، والحقيقة أن المغول والخوارزميين لاينتمون إلى أصل واحد مشترك، كما ظن ذلك بعض المؤرخين[٢].

وأما صفاتهم النفسية فكانت تدل على أنهم أهل غلظة ونجدة وأصحاب عزيمة صلبة ومحبة في السفر، وبخاصة إلى خراسان[٣] التي تفصلها صحراء الأتراك الغز عن بلادهم كما سبق القول.

وهم على الإجمال قد مرنوا على تحمل ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير[٤] حتى صاروا موضع بأس ومنعة فهابتهم قبائل الأتراك الغز التي كانت مصدر خوف وقلق لجيرانهم، فكانت تهاب سطوتهم وتحذر من مصادرتهم[٥].

وقد احترف الخوارزميون كثيراً من المهن، وأهمها التجارة حيث كانت أكثر ضياع خوارزم مدنًا ذات أسواق ودكاكين، وفي النادر أن يكون هناك قرية لاسوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة[٦].

وكانت أهم تجارات خوارزم الطعام والحبوب والفاكهة كما كانت تصدر منها ثياب القطن والصوف والحرير وسائر الأمتعة، وكان من غلات خوارزم

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٢٧ ص٢٩٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٥٠٦، ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور ص١٦، الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٣٦٨.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٩، الحميري: الروض المعطار ص٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٩.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

أيضاً الشمع ولحاء شجر الحور الأبيض الذي يتخذ غلافاً للدروع، وغراء السمك والعنبر والعسل والخلنج(١) .

كذلك كانت خوارزم مركزاً لحركة بيع وشراء أشهر أنواع الفراء وأغلاها ومنها الفنك والسمور والثعالب وكانت تجلب إليها من بلاد البلغار على نهر الفولجا، كما نشطت بخوارزم أيضاً تجارة الرقيق من الصقالبة والأتراك الذين كانوا يجلبون صغاراً فيجرى تعليمهم الدين الإسلامي وآدابه، ثم يرسلون إلى سائر الأقطار الإسلامية(٢)

وأهتم الخوارزميون بالزراعة فأكثروا من زراعة الأشجار وبخاصة شجر التوت والخلاف لاحتياجهم إليه لعمائرهم وطعم دود الإبريسم(٣) . كما كانوا يزرعون البطيخ الذي لايوجد مثله في شيء من البلاد حلاوة وطيباً(٤) كما كانوا يزرعون أيضاً العنب والسمسم والأرز والقطن(٥) .

وأولى الخوارزميون الرعي اهتماماً واضحاً، فقد انتشرت المراعي في الشمال قرب بحر آرال «بحيرة خوارزم» حيث كانت تربى قطعان الأغنام التي يؤخذ منها الصوف، وقطعان الماشية التي تنتج أصنافاً كثيرة من اللبن والجبن(٦)

وكان من الطبيعي أن يقوم على ذلك كله العديد من الصناعات المهمة،

(١) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢ .
(٢) الحميري : الروض المعطار ص٢٢٥، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦ .
(٤) القزويني : آثار البلاد ص٥٢٠ .
(٥) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢ .
(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٤ . كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢

ومنها صناعة السيوف والدروع والقسي، وصناعة البسط وثياب اللحف والديباج المصنوع من القطن والحرير، و غيرهما من الثياب الملونة، وكذلك صناعة السفن من جذوع الأشجار للملاحة في الأنهار الكبيرة والصغيرة(١).

ولم تكن مدينة «جُرْجانية» عاصمة خوارزم الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون إلا صورة واضحة لكل مدن هذا الإقليم، فقد كانت مدينة عامرة ذات أسواق(٢) وربض وسور محيط بالربض، كما كانت مركزاً للتجارة مع الأتراك الغز(٣) وكان أهلها يعملون بالصناعات الدقيقة آنذاك كالحدادة والنجارة، وكانوا يتحرون الدقة المتناهية في أعمالهم حتى إنهم تميزوا في صناعة الأدوات من العاج والأبنوس، كما كانت نساؤها يعملن بالأبرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة(٤).

وكانت مساحة جرجانية تزيد على مساحة كثير من المدن الإسلامية المشهورة مثل مرو ونيسابور وبلخ(٥) مما يؤكد على أهميتها التي أهلتها لتكون عاصمة الدولة الخوارزمية على اتساعها.

وقد شاهد ياقوت الحموي جرجانية بنفسه سنة ٦١٦هـ قبيل سقوطها في أيد المغول فهو يقول عنها «فلم أعلم أني رأيتُ أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، فاستحال ذلك كله بتخريب المغول إياها حتى لم يبق فيما بلغنى إلا معالمها، وقد قتلوا جميع من كان بها(٦).

(١) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص٤٧٩.

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٦، الحميري: الروض المعطار ص١٦٢.

(٤) القزويني : آثار البلاد ص٥٢٠، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢.

(٥) الحميري : الروض المعطار ص١٦١.

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص١٢٢.

obeikandi.com

سلاطين خوارزم :

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهوعبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور[١] التي تقع في أفغانستان الحالية.

ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المتسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدّمه إلى بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه حيث حظي بوظيفة الساقي[٢] . وقد هيأت له هذه الوظيفة فرصة الترقي حتى عين شحنة على أقليم خوارزم سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م[٣] ، فاستمر مداوماً عليها حتى وفاته في سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م[٤] .

ولما كان أنوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمدإلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة[٥] فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقي حين رأى الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي بركيا روق تعيينه والياً على إقليم خوارزم ولقبّه خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٦٧، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص١٩٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ٤ ص٣٢٢، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص١٩.

(٣) الجويني : تاريخ جهان نكشاي جـ١ ص٢٥٥، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٨٢، فامبري: تاريخ بخارى ص١٤٧.

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٣٨٣، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص١١٥.

(٥) الجويني : تاريخ جها نكشاي جـ١ ص٢٥٦.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٦٧، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص١٩.

obeikandi.com

وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركيا روق في خامس جمادى الأولى(١) فأبقى قطب الدين محمداً في منصبه، فظلّ هذا الأخير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم (٤٩٠ : ٥٢١هـ) تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته(٢).

وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرفان بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه، كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة في الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي.

ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد (٥٢٢ : ٥٥١هـ) أن يصير على هذه الطاعة طويلاً، فخرج عن إطارها منذ عام ٥٣٠هـ ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام ٥٣٣هـ، ٥٣٨هـ، ٥٤٢هـ، وفي كل مرة كان أتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه!!(٣).

وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان أتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاى الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة ٥٣٦هـ عند قرية قطوان التي تقع على

---

(١) ابن ناصر الحسيني : زبدة التواريخ ص١٧٧، البنداري : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣٦، النويري : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٣٧٣ .

(٢) خواندمير : حبيب السير جـ٢ ص٦٢٩، عباس إقبال : تاريخ إيرن بعد الإسلام ص٢٨٣ .

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٦ ص٣٨٥ - ٣٨٦، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١١٥، ص١١٧، فامبري : تاريخ بخارى ص١٤٨ .

خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك أغلب جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمذ، فسقطت بذلك بلاد ما وراءالنهر كلها في أيدي القراخطاي[١] .

وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالعاً في استحضار القراخطاي وتحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه أضطر أمام تفاقم خطرهم، وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع لهم خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون الف دينار[٢] .

أما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل الغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعت هذه الهزيمة عند مدينة مرو سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وفيها قُتِلَ قوادسنجر، ووقع هو مع زوجته في الأسر[٣] .

وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران أبان الفترة الأخيرة من حكم سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسان بثرواته الطبيعية.

وعلى هذا لم توقف وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من

---

(١) البنداري: مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٥٤، الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٤ ص٩٨، وتقع ترمذ على شاطئ نهر جيحون من جانبه الشرقي في مواجهة مدينة بلخ على الضفة الأخرى.. انظر .. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٤.

(٢) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٨٥، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٥٤، فامبري: تاريخ بخارى ص١٤٩.

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٣٧٩، عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق ص١٣١.

جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[١] أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧[٢] حتمية الصراع بين الطرفين، فقد شرع إيل أرسلان بن اتسز (٥٥١-٥٦٨هـ) في بسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر[٣].

وأخيراً تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن ايل أرسلان (٥٦٨ : ٥٩٦هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق[٤] فأضحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأراضي الخلافة العباسية.

ولم يؤد هذا التجاور المكاني إلى نتيجة حاسمة ترضى الطرفين فالخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ : ٦٢٢هـ) والذي حرّض الخوارزميين على محاربة السلاجقة أملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قد أدرك بجلاء أنه استبدل خصمًا هرمًا بآخر فتى عنيد، فهؤلاء الخوارزميون القادمون من الشرق لن يكتفوا باحتلال أملاك السلاجقة فحسب، وإنما ستمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها والتي تمثلت

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٢٦٥، أحمد حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١١٨.

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٢٨٩، الذهبي: العبر جـ٤ ص١٤٨، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٠.

(3) Skrime & Ross: the Heart of Asia. P. 140

وانظر أيضاً .. دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ص٦٢ وعباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٢٣.

(٤) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص٥١٣، ابن ناصر الحسيني: زبدة التواريخ ص٣١٣.

obeikandi.com

في فرض اسمهم على الخطبة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلو عليه[١].

ولم تغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه (٥٩٦ : ٦١٧هـ) عاود الخوارزميون المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى اتباع نهجه القديم، فشرع في استعداء الغوريين على الخوارزميين[٢] ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل إنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (٦٠٧ : ٦١٨هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودبار، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية، واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة[٣].

وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في إحكام سيطرتهم على إيران كلها، ففي الشمال تمّ الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين وضمّه سنة ٦٠٦هـ إلى دولتهم[٤] وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان سنة ٦٠٧هـ ثم اقليم مكران سنة ٦١١هـ، وتضمن ذلك الساحل المطل على

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢١٣، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٧، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٦٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٦٣، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٣٧.

(٣) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٣٢، ص٣٣٣، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٤١.

(٤) الجويني: تاريخ جها نكشاى جـ٢ ص٣١٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢١٥.

المحيط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم[١] .

وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتواء مدينتي هراة وبلخ سنة ٦٠٣هـ، وهما من أملاك الدولة الغورية[٢] ، التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم سنة ٦١٢هـ[٣] ، فآل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش.

وفي غضون ذلك كان الخوارزميون قد حققوا نجاحاً باهراً حين تمكنوا سنة ٦٠٦هـ من هزيمة دولة القراخطاي وتقليص نفوذها عن أهم بلاد ما وراء النهر (سمرقند - بخارى)[٤] .

وموجز القول هنا، إن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها، وأضحى اصطدامها بالخلافة العباسية وشيكاً، وبالفعل سار السلطان الخوارزمي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد، واستطاع أن يوطد نفوذه في غربي إيران وبخاصة في مدن الري وقزوين وقم وساوه وهمذان وغيرها[٥] .

وقد بادر العديد من الحكام المحليين - الذين توهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أنهم من حلفائه - وعلى رأسهم كل من الأتابك سعد الدين

---

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص١٠٥، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧، ص٢١٤، ص٢١٥.

(٣) عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١١٦، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٢١.

(٤) الجويني تاريخ جها نكشاى جـ٢ ص٣١٩.

Schneider: Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources vol. II. p. 51

(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص١٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢١٩.

obeikandi.com

ابن دكلا، صاحب أتابكية فارس، والأتابك أوزبك بن البهلون صاحب اذربيجان وآران إلى إعلان الولاء للسلطان الخوارزمي وذلك بذكر اسمه في الخطبة على المنابر[١].

ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر بن طاهر الحسيني ونصبّه خليفة، وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة[٢].

ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدى الخطير من قبل الخوارزميين، بعد أن رأى بنفسه تهاوى حلفائه تباعاً تحت وطأتهم، فبادر إلى مراسلة خاقان المغول جنكيزخان[٣] – الذي ذاع صيته في الشرق – كي يضغط من جهته على الخوارزميين بكل وسيلة ممكنة.

وفي الحقيقة لم يكن لدى جنكيزخان آنذاك أية دوافع تحركه ضد الخوارزميين أو سلطانهم، فقد كان مشغولاً في أقصى الشرق بتوطيد سلطانه على الصين الشمالية التي استولى على عاصمتها بكين سنة ٦١٢هـ[٤] وكذلك مطاردة خصومه في غربي منغوليا من القبائل المغولية المناوئة له من

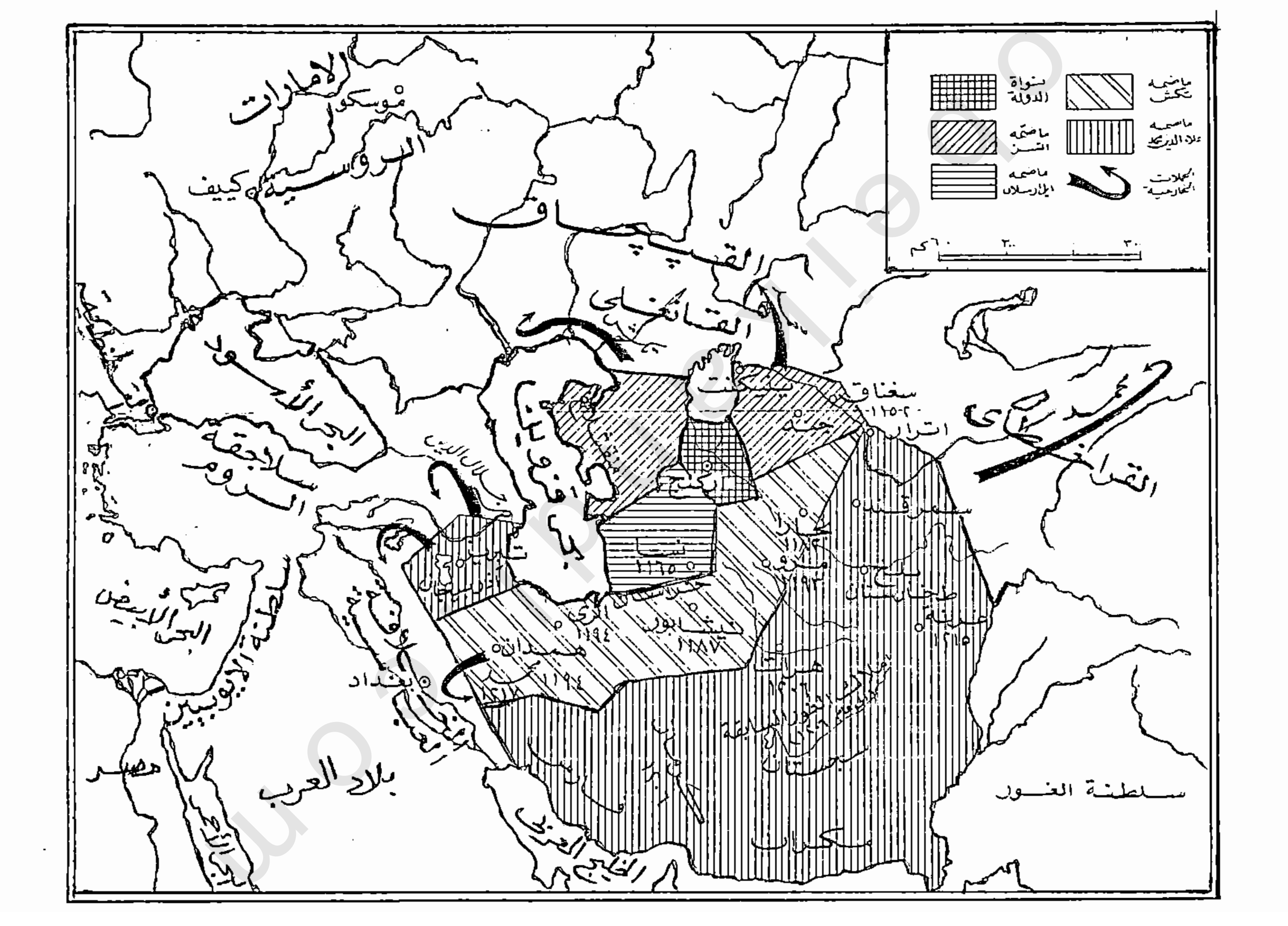
(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكرتي ص٥٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص٣١٧.

(٢) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب جـ٤ ق٢ ص١٠٨٥، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٧، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٠٤، ميرخواند: روضة الصفا جـ٥ ص٧٧ – ص٧٨، الصفدي: الوافي بالوفيات جـ٢ ص٢٧٧.

(٤) جرجسيه: جنكيزخان قاهر العالم ص١٥٢، ادوارد بروي: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص٣٥٩.

obeikandi.com


نواة الدولة
ما ضمه تكش
ما ضمه أتسز
ما ضمه علاء الدين محمد
ما ضمه إيل أرسلان
الحملات الخارجية
٦٠٠ كم
٣٠٠
الإمارات الروسية
موسكو
كييف
القبجاق
القانقلي
البحر الأسود
سلاجقة الروم
بحر قزوين
سغناق
اترار
القراخطاي
سمرقند
نسا ١١٦٥
نيسابور ١١٨٧
الري ١١٩٤
همدان ١١٩٤
بغداد
البحر الأبيض
سلطنة الأيوبيين
مصر
بلاد العرب
الخليج العربي
سلطنة الغور


obeikandl.com


obeikandl.com

المركيت والنيمان(١) فآثر أن يتريث في تحديد علاقته مع السلطان الخوارزمي حتى تتضح الأمور.

أياً كان الأمر، فقد عجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله. إذ هبت على جيوشهم عند أسد آباد التي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني أقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة إلى بلاده(٢).

ولم يستفد الخوارزميون من الظروف التي كانت تشغل المغول ولا من المعاهدة التجارية التي جرى إبرامها بين سلطانهم علاء الدين وجنكيز خان سنة ٦١٥هـ(٣)، كما لم يستفيدوا عسكرياً من التجربة الحربية التي خاضتها القوات الخوارزمية بقيادة السلطان نفسه والتي عجزت فيها عن إلحاق الهزيمة بجيش مغولي صغير كان يقوده حوجي بن جنكيز خان مطارداً قبائل المركيت المغولية المناوئه التي فرت غرباً إلى حدود نهر أرتيش شمالي خوارزم(٤).

أما أكبر الأخطاء التي وقع فيها السلطان الخوارزمي فكان الإغضاء عن النصيحة الصادقة التي أسداها إليه المخلصون بأن يجمّع جيوشه كلها في

---

(١) رشيد الدين: تاريخ جنكيزخان ص١٧٩ (مخطوط) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص٦٦.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٦٤، العريني: المغول ص ١١٣.

Howorth: history of the mongols vol I. p. 8.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٤١، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص٥٠.

(٤) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص٥٣٢، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٩٦.

مكان واحد تحت قيادته قبل لقاء المغول، وألا يفرقها بين كبريات المدن الإسلامية الواقعة على خط المواجهة المرتقبة معهم، حتى لايسهل على هؤلاء المغول القضاء على تلك المدن الواحدة تلو الأخرى(١) .

ولما كانت جيوش المغول آنذاك على أعلى درجة عسكرية بالقياس لغيرها من الجيوش الأخرى، وبخاصة في حسن التدريب وسرعة الحركة والمناورة وبراعة التخطيط للحرب(٢) فقد كان طبيعياً أن تنجح في اجتياح معظم أراضي الدولة الخوارزمية من شرقيها إلى غربيها في مدة يسيرة لم تتجاوز بضعة سنوات قليلة، ولا غرو أن فرَّ السلطان الخوارزمي علاءالدين بنفسه منذ بداية الحرب سنة ٦١٦هـ حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة نائية في بحر قزوين حيث لفظ أنفاسه كمداً على ضياع مملكته الشاسعة وعلى نسائه اللائى وقعن أسيرات - وعلى رأسهن أمه تركان خاتون - في أيدي المغول عند قلعة مازندران سنة ٦١٧هـ(٣) .

ولم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي (٦١٧-٦٢٨هـ) أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة ٦١٨هـ(٤) إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند أثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده وبالتالي هزيمته

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٩٠، ص٩١.

Schneider, mediaeval researches from Eastern Asitatic Sources: vol II. p. 58

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٥٥٣، ف. يان. الصيني: جنكيزخان سفاح الشعوب ص٩٧، ص١٦٤، جروسيه : جنكيز خان قاهر العالم ص٢٩٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٣٧٣ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٦٤.

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص١٥٤، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٥٦، جروسيه: جنكيز خان قاهر العالم ص٣١٤.

أمام جيش جنكيز خان في نفس العام(١) .

قبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة ٦٢١هـ، قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه قد آثر أن يضع نفسه وما تبقى من جيشه في أبعد نقطة عن متناول جيوش المغول، ومن ثمة فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل إنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد الدين أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم إقليم يزد(٢) .

وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة اقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين - الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين وتوطد حكمه فيها بعد انسحاب المغول منها عائدين في اتجاه الشرق - قد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين(٣) الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية.

وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين الله في شوال سنة ٦٢٢هـ، ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر إذ توفى في رجب سنة ٦٢٣هـ(٤) ،

---

(١) الجويني : تاريخ جها نكشاي جـ٢ ص٤٦-٤٧، العريني: المغول ص١٣٦.

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٦٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص٢٦١، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٧١ - ١٧٢.

(٣) الجويني : تاريخ جهنا نكشاي جـ٢ ص٥٥، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٢٠.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص١٤، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١٣٦.

obeikandi.com

فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ) الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين ومن ثمة فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين[١].

ومن ناحية أخرى انشغل المغول بوفاة الخاقان الأعظم جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ[٢] وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي (المؤتمر العام الذي يناط به اختيار الخان الجديد) مدة عامين أدار خلالهما تولوي بن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخاب أوكتاي ثالث أبناء جنكيزخان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م[٣].

وفي تلك الأثناء كان السلطان جلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس[٤] وانتقم منهم لما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقليم أذربيجان المجاور.

وجاء استيلاء الخوارزميين في الثامن والعشرين من جمادي الأولى سنة ٦٢٧هـ على مدينة اخلاط[٥] التابعة - آنذاك - للملك الأشرف بن العادل

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٠٧، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٨٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٢٨، جروسيه: جنكيز خان قاهر العالم ص٢٧٢.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص٦٤٩، هارولدلامب: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص١٦٢.

Howorth: History of the mongols. Vol I. P. 130

(٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٢١١ - ٢١١، العريني: المغول ص١٧٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٨٨، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٧٩.

الأيوبي بداية لنهاية سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي الذي تعرض جيشه لهزيمة مريرة أمام تحالف جيش الأيوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان، وأرسل جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة(١).

ولم يضيع الإسماعيلية في آلموت الفرصة السانحة – بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إنه اضطرهم إلى دفع أتاوة سنوية له – فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء عليه(٢)، قبل أن يسترد قوته.

وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، فقد جاء انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان سنة ٦٢٦هـ خاناً أعظم للمغول إيذاناً بتنفيذ استراتيجية مغولية جديدة تمثلت في غزوات عسكرية متوالية على جبهات ثلاث هي جنوبي الصين، وغربي إيران وشرقي أوربا.

وما يهمنا في هذا المجال هو الحملة الثانية التي كانت ترمى إلى إعادة تثبيت سلطان المغول على مختلف غربي إيران وبخاصة الشمال الغربي(٣) حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جلال الدين.

وسرعان ما بادر هذا الأخير – رغم الخلاف – إلى مكاتبة الخليفة العباسي المستنصر بالله، والملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة،

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص١٧، ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢١٢ – ٢١٣، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٤٠.

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٤٤ ، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٥٢٤.

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٣١، العريني : المغول ص١٧٥.

Schneider: Mediseval researches from Eastern Asiatic Sources Vol. I. P. 112.

والسلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وغيرهم من أمراءالمسلمين حكام ميافارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فاحجم هؤلاء كلهم عن مناصرته(١).

سقوط جلال الدين :

أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في الآف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه، وسقوط هيبته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته.

وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدي القوى السياسية في المنطقة، فقد أيقن معظم أمراءالجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق والمؤيد من قبل أخيه السلطان الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط(٢) كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس(٣).

ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ٢ ص٨٦، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٤ – ص٢٩٥.

(٢) ابن البيبي : مختصر تاريخ سلاجقة الروم ص٢٢٣.

(٣) العريني : المغول ص١٨٠.

للخوارزميين، واجترأت على قتل البعض منهم[١] وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماطلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي[٢].

أما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم.

كل هذه المؤشرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي الذي كان قد وقع - عقب هزيمته السابقة - في أخطار عديدة منها - :

أ - ضعف نظام استطلاعه، فقد وقعت إحدى سراياه في أيدى المغول عند مدينة الري، بينما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عودة المغول، وتخاذلت الثالثة، فلم يذهب أفرادها إلى ما زندران أو خراسان كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه[٣].

ب- اعتقاده الخاطيء أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه إلى أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتهم له على غير استعداد منه، فاضطر إلى ترك نسائه في العراء على مقربة من مدينة تبريز، وسارع هو

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٩، ص٣٦٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٦، ويذكر النسوي الذي توجه إلى الإسماعيلية ليفاوضهم في أمر سداد الأتاوة أن الأمر قد تقرر على أنهم يزنون منها عشرين ألف دينار، ويمهلهم النسوي في العشرة الباقية ريثما يشاورون فيها السلطان .. انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٤٢.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٢، الجويني: تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٨٨، رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٤٦.

obeikandl.com

إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك[١] .

جـ- إلحاحه في مكاتبه الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاط - رغم نصح خلصائه له بعدم جدوى ذلك - خاصة وأنه أي جلال الدين قد دخل بزوجة الملك الأشرف الكرجية - نسبة إلى بلاد الكرج - في ليلة اقتحامه مدينة أخلاط - وأصرَّ على الاحتفاظ بها حتى بعد انهزامه من جيش الملك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة ٦٢٧هـ[٢] كما سبق القول.

د - تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي - رغم حرج موقفه بعد الهزيمة السابقة واقتراب خطر المغول منه - للهجوم على مدن خرتبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاءالدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فأغار هؤلاء الفرسان الخوارزميون على تلك المدن الرومية، وساقوا إلى المعسكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار[٣] وكشف هذا الإجراء من قبل السلطان الخوارزمي عن فقده بصيرته السياسية إذ إنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حدوث تغيير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه.

هـ- انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقى المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الاتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم

(١) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٠٤، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية المغول ص١٩٤.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٦٣، ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ص ١٥.

D'Ohsson: Histoire des Mongols. Vol 3. P. 42

(٣) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٣.

الجبال، وغيّر مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، رفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً(١) ومضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

و – وضع ثقته المطلقة في «أوترخان» الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة، إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجرد، وأشار عليه – في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله – بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه من جميع الوجوه بتدبيره – كما يقول النسوي – ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين لما كان بينهما من مكاتبات(٢).

ز – وقوعه في العديد من الأخطاء الشخصية وأهمها :

١– انكبابه على تعاطى الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحدق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لايملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية، وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده – في ميدان الحرب – بإعمال العقل والتركيز بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى(٣).

٢– حادثة خادمه قلج، وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٢.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٥، ص٣٨٠.

(٣) الجويني : تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٨٩، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٦٤. براون : تاريخ الأدب في إيران ص٥٧٢.

الدين يرعاه، فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجّالة، ومشى بعض الطريق راجلاً، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي، واستصحبه معه حيث سار، وهو يلطمُ ويبكي، ثم امتنع عن الأكل والشرب، وكان إذا قُدِم له طعام يقول: «احملوا منه إلى قُلج» ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات، فإن قيل له مرة إنه مات، قتل القائل، فكانوا يحملون إليه الطعام ويعودون فيقولون: «إنه يقبل الأرض، ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت» فلحق أمراؤه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه إلى وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول إليه[١].

أما الوزير، فقد تسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها، وجاهر بالعصيان فيها، وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران وآذربيجان لنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة بهما، فكاتب علاء الدين كيقباذ، والملك الأشرف باذلاً الطاعة لهما، وناعتا سلطانه (جلال الدين) بالظالم المخذول في كتبه»[٢].

وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى إنه قبض على كل من عبر بحدود

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٦، ص٤٩٧، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٤٧، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٣ – ص٢٩٤.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٧، وحيزان من مدن أرمينية الكبرى قريبة من شروان. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٣١.

قلعته من أصحاب السلطان في أثناءالجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب، ثم استلب أموالهم[١] بل إنه كاتب حسام الدين قلج أرسلان أكبر أمراءالتركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وإنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه[٢] فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله[٣] .

٣- إصداره الأمر - لما دهمه المغول آخر مرة - إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول، ويخلص هو بمفرده،ولقد أخطأ في ذلك - كما يقول النسوي - فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة الآف فارس، وساق إلى أصفهان، وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظلَّ على قيد الحياة بفارس إلى سنة ٦٣٩هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهور سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي[٤] .

أيا كان الأمر ، فإن هزيمة السلطان جلال الدين أمام المغول عند آمد ، وفراره إلى إحدى القرى القريبة من ميافادقين، ثم صعوده إلى جبل مجاور يسكنه الأكراد، قد انتهى به إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاءالأكراد، فقتله أحدهم في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ/ أغسطس سنة ١٢٣١م[٥] .

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٧.

(٢) الجويني : تاريخ جها نكشاي جـ٢ ص٨٧، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٤٥؛ العريني: المغول ص١٧٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٧؛ خواندمير: دستور الوزراء ص٣١٢.

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٩، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٥٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٦.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٢، العريني : المغول ص١٧٧، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق١ ص٢٤١.

obeikandi.com

ونما خبر مصرعه إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين فأمر بإحضار من قتله، فأحضروه فأقرَّ بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان «أوترخان» السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره، فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان انظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى، وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش[١].

ثم أمر المظفر غازي بشنق القاتل وأخوته وقتل أهله وأقاربه وقال: مثل هذا السلطان الكبير الشأن يجسرون عليه، والله لو أحضروه إليّ حياً لأغنيتهم[٢].

وفي الحقيقة لايخرج هذا الموقف الدرامي من قبل صاحب ميافارقين عن مجرد كونه إجراءً شكلياً ذا طابع انفعالى مؤقت؛ ذلك أنه لم يشأ ولم يكن بمقدوره الخروج عن السياسة العامة التي انتهجها الأيوبيون جميعاً حيال المغول والتي كانت تقضى بعدم الدخول معهم في آية مواجهات عسكرية أياً كانت الأحوال، ويفسر ذلك أهم أسباب إحجام هؤلاء الأيوبيين عن تقديم أية مساندة عسكرية للسلطان جلال الدين في صراعه المرير ضد المغول.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٦٩ - ص٦٧٠، النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٨٣ - ٣٨٤، أما الجويني: تاريخ جهانكشاي ج٢١ ص٩٣، وعنه ينقل رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٤٦، فيضع صاحب آمد الملك المسعود مكان صاحب ميافارقين الملك المظفر غازي ويضيف بأن الملك المسعود بنى مدفناً يليق بالسلطان الخوارزمي في «آمد» وليس هذا صحيحاً، لما أثبته في المتن من العلاقة السيئة بين السلطان الخوارزمي وصاحب آمد وأهلها ولأن جبال الأكراد تقع على مقربة من ميافارقين لا آمد.

(٢) ابن العميد: تاريخ الأيوبيين ص١٨، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٣.

obeikandi.com

التمزق الخوارزمي :

لما كان المغول قد أوقعوا بالسلطان جلال الدين وهو بظاهر آمد، ومضى منهزماً إلى جبل الأكراد القريب من ميافارقين وكان من أمره ما سبق الإشارة إليه، فقد تفرق من كان معه من العسكر، وتمزقوا في كل وجه(١) .

فقد تسحب خاله ومعه جماعة إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حرّان وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الملك الأيوبي الكامل، فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم عسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعه حرّان ، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها(٢) .

أما حظية السلطان التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان ، وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياه إلى أن ماتت في أيامه(٣) .

وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين، والموصل، وسنجار، وإربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم(٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨ ، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٧٠ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٥٧، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير : لكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٦٧ .

وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم[١] على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون - الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود - وبلاد الكرج المجاورة[٢] .

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظلَّ في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة .

أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفي في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٨ .

obeikandi.com

وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم(١) على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون – الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود – وبلاد الكرج المجاورة(٢) .

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظلّ في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة .

أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفي في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٨ .

محمدالسهروردي[١] ، وكان ذلك تعبيراً عن مدى العلاقة الطيبة بين الخلافة العباسية وملوك سلاجقة الروم، الذين كانوا يكنون الاحترام العميق من الناحية الدينية لخليفة بغداد دون أن يعنى ذلك أى تبعية عملية من الناحية السياسية أو العسكرية.

وفي الحقيقة كان علاء الدين كيقباذ ملكاً حصيفاً ذا أفق بعيد، فلم ير في البداية جدوى في استمرار العداء مع جيرانه الأيوبيين الذين كانوا يسيطرون على الشام وبلاد الجزيرة، وعلى هذا فقد أقدم على الزواج من ابنة الملك العادل الأيوبي (ت/٦١٥هـ) ليوثق بذلك الأواصر السياسية بين الطرفين[٢] .

وقد أتاحت هذه العلاقات لعلاء الدين كيقباذ أن يوطد حكمه في الداخل، وأن يدعم سلطانه مع جيرانه في هضبة الأناضول وخارجها ففي الشرق نجح في محاربة الكرج والقبجاق والروس، فامتد نفوذه بذلك إلى سواحل بحر قزوين،وفي الغرب احتفظ بعلاقات متكافئة مع دولة الروم البيزنطيين التي امتدت أملاكها لتشمل الجزء الغربي من هضبة الأناضول في أسيا الصغرى، وفي الجنوب نجح في إخضاع مملكة أرمينية الصغرى لنفوذه وفرض عليها الجزية ، كما استولى على عدد من القلاع الحصينة على ساحل البحر الأبيض ومنها «كلونوروس» التي أطلق عليها اسمه فصارت «العلائية» وكذلك قلعة «آلاره»[٣] وغير ذلك مما أحكم قبضته على الساحل الجنوبي لبلاده على هذا البحر، وفي الشمال وطّد سلطانه على أغلب السواحل الجنوبية

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص١١٦.

(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٥ ص١٣٩ ،ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ٥ ص١٦٢.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص١٢٦، العريني : المغول ص ١٠١

للبحر الأسود وبخاصة ميناء سينوب[١] الذي كان قد فتح في أيام أخيه السلطان عز الدين بن كيخسرو.

وعلى الرغم من ذلك كله كان علاء الدين لايرى محاربة المغول لأنهم أصحاب دولة فتية وجيش قوى مدرب، مكنهم من تحقيق انتصارات ساحقة على أعداء متعددين، لذلك استصوب فكرة مهادنتهم، وتقديم الهدايا لهم تسكيناً لثائرتهم وتفادياً لشرهم.

وقد اتضح هذا الرأى في رده على السفارة الثانية التي أرسلها إليه السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي عندما كان جيشه محاصراً لمدينة «أخلاط» التابعة للملك الأشرف الأيوبي فقد قال «أما الآن وقد تحقق أنه (أي السلطان جلال الدين) صرف همته لمحاصرة قبة الإسلام «أخلاط» بتسويل أصحاب الأغراض، وما هم إلا شياطين الانس، فإن الأمر يبدو بعيداً عن الرأى السديد، ونحن وفقاً لحكم الحق تعالى: ﴿وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر﴾ نجهر بالقول بأنه أولى به أن ينثنى عن هذه المدينة، ويقصد ملكاً من ممالك المشركين، وهناك مصلحة أخرى من باب النصيحة التي هي الركن الأهم والباب الأعظم للدين والملك، وهي أن يسلك مع جيش التتار طريق المداراة والمهادنة، وأن يقرع – كلما تمكن من ذلك – باب المصالحة من جانبه وبكل ما في وسعه، وإنه ليجول بخاطري وضميري أن أرسلُ رسلاً إليهم، واعتذر لهم عما بدر من السلطان علاء الدين محمد – أنار الله برهانه – من تعجيل، وذلك لصالح المسلمين أجمعين، كي تنطفئ جمرة الفتنة التي استولت على أطراف الخافقين بلين المقال وبذل المال[٢].

ولم يلق السلطان الخوارزمي لذلك النصح بالاً، وانتهى الأمر الى

(١) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص١٧٥.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ١٩٧ – ١٩٨.

obeikandl.com

استيلائه على مدينة أخلاط ثم نشوب الحرب بينه وبين التحالف السلجوقي الأيوبي، وهزيمته على مقربة من أرزنجان سنة ٦٢٧هـ.(١) ومقتله في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وتفرق جيشه في أنحاء شتى، وهروب نوابه بمدينة أخلاط في اتجاه الشرق إلى مدينة أرّان(٢) .

وقد فاجأ المغول - بعد أن حلوا مكان السلطان الخوارزمي في الشمال الغربي من إيران - السلطان السلجوقي علاءالدين بتوغل فرقة مغولية من جيشهم سنة ٦٢٩هـ في نواحي «سيواس» فقتلت وأسرت واسترقت الكثير من الخلائق والمواشي، فلم يجد السلطان السلجوقي بداً من إرسال جيش بقيادة الأمير كمال الدين كاميار إلى «سيواس» لمواجهة هذا الحدث فما أن وصلها حتى كانت الفرقة المغولية قد عادت أدراجها، فتبعها الجيش السلجوقي حتى حدود أرزن الروم، ثم توقف بعد أن وصلت الأنباء أن هذه الفرقة المغولية قد اجتازت ممر «يونس» في طريقها إلى مركز التجمع الرئيسي للجيش المغولي في صحراء «موقان»(٢) الواقعة على ساحل بحر قزوين.

ولما كان الأمير كمال الدين كاميار قد أصبح من جراء ذلك في وضع حرج، فإنه قد رأى ألا يعود إلى سلطانه خالي الوفاض، فرأى أن يهاجم مملكة الكرج متذرعاً بأن ملكة الكرج قد أغرت المغول بدخول ممالك السلطان وتمكن الجيش السلجوقي من انتزاع الكثير من القلاع الكرجية الحصينة، مما أدخل الرعب في قلب ملكة الأبخاز المجاورة، فأرسلت إلى الأمير كمال الدين كاميار تطلب عدم الاعتداء على مملكتها أو تخريب أطرافها وتعلن الخضوع للنفوذ السلجوقي وتعرض ابنتها للزواج من السلطان السلجوقي، الذي قبل ذلك العرض وأمر بعدم تعرض عسكره لولاية الأبخاز.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٧٣، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ٤٠٣

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ٥ ص١٢٣، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص٩١.

(٣) ابن البيبي : السابق ص٢١٩ - ٢٢٠.

وهكذا تأكدت الاستراتيجية العسكرية لدى سلاجقة الروم والتي لم تكن تختلف كثيراً عما لدى نظرائهم الأيوبيين، وتتمثل في اجتناب الصدام العسكري مع المغول في مقابل الاستحواذ على ممتلكات جديدة على الحدود، وبخاصة في أعالي الفرات، فكان حتمياً أن تؤدى هذه الاستراتيجية المشتركة إلى نشوب الصراع بين الطرفين(١) .

التحرك الخوارزمي الأول (أخلاط - الأناضول) :

ايقن السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ أن الملك الأشرف الأيوبي - صاحب الجزيرة - قد استقر بدمشق ، وأنه لايعير اهتماماً لما يحدث بديار الأرمن في الوقت الذي يتابع فيه جيش المغول غاراته دون انقطاع، ويقبض على بقايا الرعية فيأخذهم أسرى، كما كان جانب من الجيش الخوارزمي قد تفرق مشرداً في تلك الأطراف، فأخذ أفراده في قطع الطريق(٢) ، ومن ثمة أرسل السلطان قائده كبير الأمراء كمال الدين كاميار على رأس جيش وأمره أن يعمل على إلحاق ديار الأرمن من «أخلاط» و«بدليس» حتى نواحي «تفليس» بسائر مملكته، فلما بلغ الجيش «أخلاط» حمل بعض أهلها الراية في الحال، واقسموا على الولاء للسلطان السلجوقي وجعلوا الخطبة باسمه(٣) .

وجاءت المشكلة هذه المرة من ناحية الخوارزميين الذين كانوا قد تجمعوا آنذاك في المناطق القريبة من مدينة أخلاط تحت زعامة عدة من الأمراء منهم قيرخان، وبركة خان، وكشلوخان، وصاروخان(٤) .

---

(١) السيد العريني : المغول ص ١٧٩.

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص١٧٥ .

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٥٩، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٧١ .

وقد أختلفت الآراء حول هذا التجمع الخوارزمي، ما بين عشرة الآف شخص(١) واثنى عشر الف فارس(٢) والتقدير الثاني يعنى أن مجموع الخوارزميين بنسائهم وأولادهم كان يزيد على ضعف هذا العدد تقريباً، ويؤيد ذلك الرأى القول «بان جمهورهم قد سار إلى بلاد الروم فنزلوا على ملكها علاء الدين كيقباذ»(٣) .

وأكدّ على ضخامة هذا العدد وخطورته مدى الاهتمام ا لكبير الذي أظهره نحوهم السلطان السلجوقي علاءالدين، فقد أرسل إليهم قائد جيشه الأمير «سنان الدين قيماز» الذي كان يدرك بخبرته أن ولاية «أخلاط» ليست آمنة من جهة هؤلاءالخوارزميين، ومن ثمة توجه إليهم مسالماً، حتى إن «قيرخان» كبير الخوارزميين آنذاك تملكه العجب من أمرهذا القائد الذي أستأذن في زيارة زوجة «قيرخان» وأبلغها السلام، وواساها ثم عاد إلى قيرخان وطلب طعاماً على سبيل التبسط ثم أخرج مصحفاً شريفاً وأقسم عليه بأن أمراء السلطان لايحملون في قلوبهم أي ضغن لقيرخان وسائر أمراءالخوارزمية، ولن يسيئوا إليهم، وكل ما يعولون عليه أن ينتقلوا من هذا التشرد إلى حالة الأمن والاستقرار ، وليس أدل علي ذلك من أن السلطان علاء الدين قد قال للأمير كمال الدين كاميار أن يدخلكم في دائرة الطاعة، فإن وافقكم هذا الأمر، فإنه يتعين على «قيرخان» وسائر الأمراء أن يقسموا جميعاً بأنهم مع السلطان في السرِّ والعلن» فاجتمع قيرخان والأمراء الخوارزميون بأسرهم وأقسموا على ذلك(٤) .

وعند حدود مدينة أخلاط – التابعة آنذاك لسلاجقة الروم – استقبل

---

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٦.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٥.

(٤) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٤.

obeikandi.com

كبير الأمراء كمال الدين كاميار الأمراء الخوارزميين وعلى رأسهم قيرخان. وقسَّم – بتوقيعات سلطانية – كل ولايات أرزن الروم عليهم، ووعد بتعزيز كامل لهذا الإجراء عند وصولهم إلى خدمة السلطان السلجوقي في العاصمة (قيصرية)، فارتحل – في اليوم التالي – قيرخان بجملة الأتباع الخوارزميين إلى أرزن الروم[١] .

وفي الطريق من أخلاط إلى أرزن الروم وعند منطقة « طوغطاب » أغارت على الخوارزميين – من ناحية موغان – فرقة مغولية ، فقتل عدد كبير منهم وتشرد الباقون في الوديان فرادى وجماعات، فانطلق المغول عقب ذلك إلى مدينة أخلاط فحاصروها – وكانت آنذاك تحت السيطرة السلجوقية – وفي الفجر – كعادة المغول عند الانسحاب – ارتحلوا تاركين نيران معسكرهم مشتعلة[٢] وقد أسفر هذا الأمر عن نتائج مهمة منها :

١– تمكن رعب المغول من قلوب الخوارزمية عقب تلك المباغتة حتى إنهم قرروا ألا يدخلوا بعد ذلك في مواجهة عسكرية معهم[٣] .

٢– انسحاب الحامية السلجوقية من مدينة أخلاط مؤقتاً خوفاً من التعرض للحصار المفاجئ بداخلها من قبل المغول الذين انهمكوا في تثبيت سلطانهم على الشمال الغربي من إيران .

٣– اتخاذ مدينة أرزن الروم مركزاً لتجمع كافة الخوارزميين في الأناضول تمهيداً لنقلهم إلى العاصمة السلجوقية قيصرية حيث كان السلطان علاء الدين كيقباذ في انتظارهم لتطييب خواطرهم وزيادة الاطمئنان في نفوسهم .

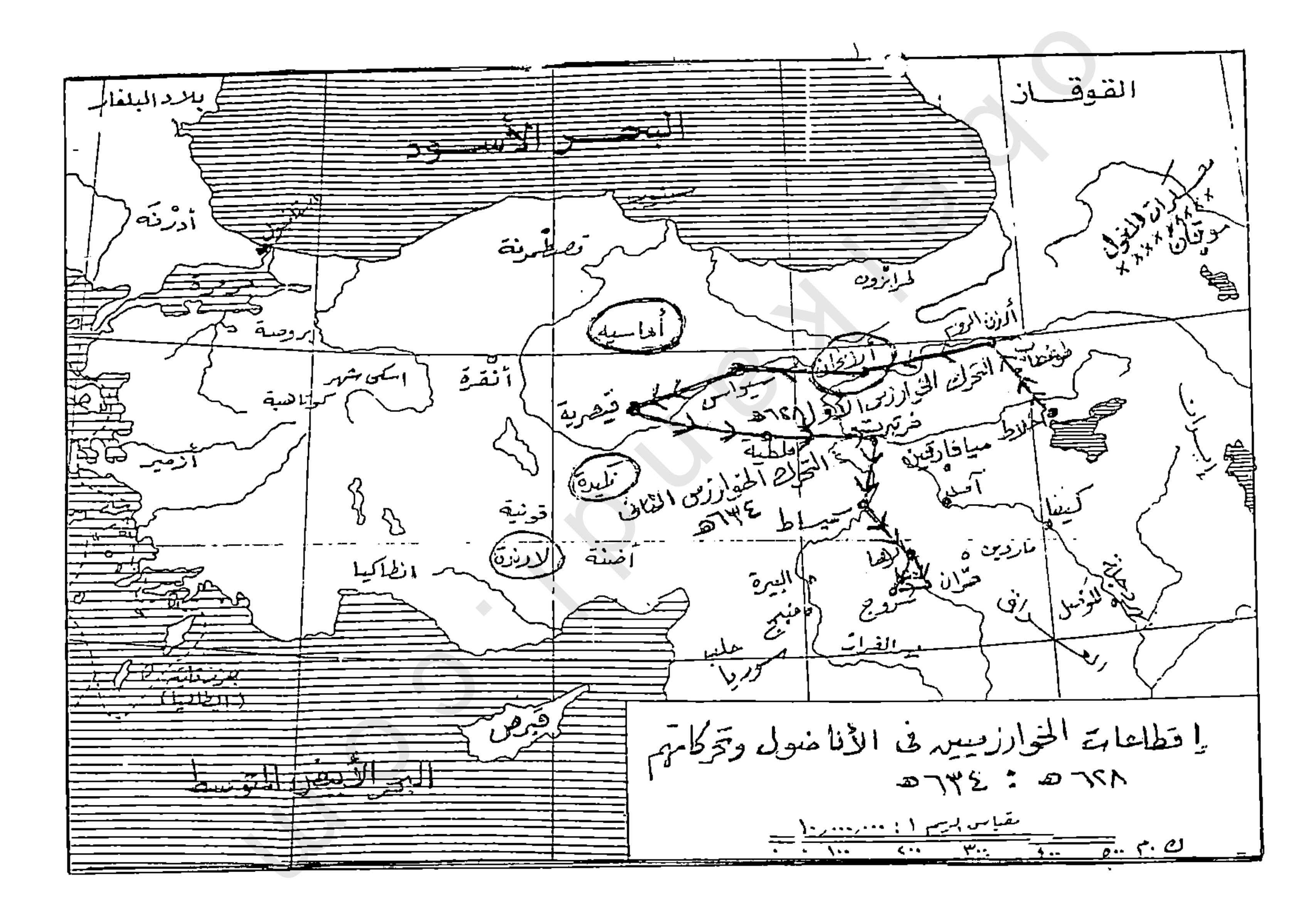
---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٧، يذكر الدكتور السيد الباز العريني في كتابه المغول ص ١٧٧ ، إن السلطان علاءالدين كيقباذ كان يأمل في استخدام الخوارزمية أن يكونوا حماية لحدوده مع أرمينيا من خطر المغول .

(٢) ابن البيبي : سلاجقة الروم ص٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٣) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٤٠٦ .

obeikandl.com



إقطاعات الخوارزمية في الأناضول وتحركاتهم
٦٢٨هـ : ٦٣٤هـ
القوقاز
بلاد البلغار
البحر الأسود
أدرنة
قسطمونية
طرابزون
أماسيه
أرزن الروم
أرزنجان
التحرك الخوارزمي الأول ٦٢٨هـ
التحرك الخوارزمي الثاني ٦٣٤هـ
خرتبرت
خلاط
ميافارقين
آمد
كيفا
ماردين
حران
الرها
سروج
البيرة
منبج
حلب
سوريا
الفرات
الموصل
دجلة
بروصة
كوتاهية
اسكي شهر
أنقرة
سيواس
قيصرية
ملطية
نكيدة
قونية
لارندة
أضنة
سميساط
أزمير
انطاكيا
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
مقياس الرسم ١ : ١٠,٠٠٠,٠٠٠


obeikandl.com

وقد رأى السلطان السلجوقي أن يوزع بعض الإقطاعات المتفرقة على كبار أمراء الخوارزميين، فجاء التوزيع على النمط التالي:

- قيرخان	ارزنجان	- شمالي الأناضول.
- بركة خان	آماسيه	- شمال الأناضول.
- كشلو خان	لارندة	- جنوبي الأناضول.
- يلان نوغو	نكيدة(١)	- جنوبي الأناضول.

ولايعنى هذا التقسيم الجغرافي أن الخوارزميين قد وزعوا على هذه الإقطاعات. ليعيشوا فيها متفرقين عن بعضهم، فقد كانت استراتيجية السلطان السلجوقي تتمثل في إحكام قبضته عليهم جميعاً في مكان واحد من جهة، ووقاية الممتلكات السلجوقية من خطرهم من جهة ثانية، وتسخير قوتهم العسكرية في خدمة أغراض التوسع السلجوقي على حساب جيرانه في الجنوب وبخاصة الأيوبيون من جهة ثالثة.

وأدى تكرار استيلاء الجيش السلجوقي المدعم بالقوات الخوارزمية على مدينة أخلاط إلى إثارة حفيظة الأيوبيين الذين تحركوا تحت قيادة السلطان الكامل سنة ٦٣١هـ لمهاجمة حدود السلاجقة في جنوبي الأناضول(٢).

وفي المقابل وجّه السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ إلى هذا التجمع الأيوبي الضخم جيشاً كبيراً أوفي على المائة الف - حسب رواية ابن العبرى - اجتمع فيه الخوارزميون والفرنج واليونان والأرمن والكرج(٣).

أما المؤرخ ابن البيبي فيقصر الجيش السلجوقي على الروم والخورازميين

(١) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٥٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق١ ص٢٤٧.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٨٠.

obeikandi.com

فقط فيقول : «وصل السلطان (يعني علاء الدين كيقباذ) بعساكر وفيرة وبصحبته أمراء الروم وخوارزم، ومالا حصر له من العتاد والعدة، وكان الخوارزمية والروم يخرجون من الممرات ويشتبكون في القتال مع رجال الشام فيقتلون ويجرحون الكثيرين منهم دون أن يلحق بهم أذى من قبل جيش الشام[١] .

وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الأيوبي، ووقوع الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة في الأسر، كما وقع غيره من كبار الأمراء وعلى رأسهم الطواشس صواب فحملوا إلى السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم ، فخلع عليهم وأحسن إليهم، وأطلقهم، وعاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية وقد حصلت الوحشة بينه وبين أخيه الملك الأشرف، والملك المجاهد صاحب حمص، وجميع الملوك الذين كاتبوا سلطان الروم، ولذلك فإنه في طريق عودته إلى مصر اعتقل الملك المسعود صاحب آمد بحكم أنه من جملة من كاتب سلطان الروم[٢] .

وفي سنة ٦٣٢هـ خرجت عساكر سلاجقة الروم نحو آمد، فأقاموا عليها ثم نازلوا مدينة السويداء القريبة من حران فأخذوها، وأخذوا أيضاً بعض القلاع في حرّان والرها[٣] أما الخوارزميون وعلى رأسهم «قيرخان» وسائر أمراء خوارزم فإنهم انطلاقاً من الحقد الذي ملأ قلوبهم من جهة الملك شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين، والملك المنصور صاحب ماردين، والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ؛ لكونهم لم يلتفوا إلى السلطان جلال الدين عندما لجأ إليهم، فقد عمدوا إلى الإغارة على تلك البلاد فأشاعوا الخراب حتى أبواب

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص١٩، المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص٢٤٨ .

(٣) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣١٤، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٨٧، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٠٧ .

obeikandi.com

سنجار حيث أعملوا فيها القتل والسبي والحرق والنهب[١].

ويظهر أن صاحب ماردين قد رأى تحت الضغط الخوارزمي أن يعلن ولاءه للسلطان السلجوقي، وكان ذلك يعنى من وجهة نظر الأيوبيين إعلان الحرب ضدهم، ومن ثمة فقد أعاد السلطان الكامل في سنة ٦٣٣هـ يصحبه أخوه الأشرف الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ الذي انسحبت قواته بما فيهم الخوارزميين من الجزيرة[٢] فتمكن الملك الكامل من استعادة الرها وحرّان من نواب السلطان السلجوقي بعد حصار طويل وقتال شديد، ثم خرّب الكامل قلعة الرها وقبض على جميع من فيها وفي حرّان من بلاد الروم وقيدهم وسيّرهم إلى الديار المصرية في جوالق على الجمال فمات أكثرهم من كثرة الشدائد التي نالتهم في الطرقات وكانوا أزيد من ثلاثة آلاف نفس[٣].

وانطلقت القوات الأيوبية نحو ماردين لمعاقبة صاحبها على تحالفه مع سلاجقة الروم ، وتعرضت مدينة دُنَيسر الواقعة جنوبي ماردين للتخريب والنهب والقتل فلم يسلم من ذلك سوى الجامع[٤] فلما ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الملك الأشرف بأن المغول قد قطعوا نهر دجلة في مائة طلب، كل طلب خمسمائة فارس ووصلوا إلى سنجار، بادرت القوات الأيوبية بقطع نهر الفرات عائدة إلى دمشق، ورجع المغول أيضاً عائدين فعبروا الفرات[٥].

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) سبط ابن الجوزي :مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٩٥، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٩، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٥٨، ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٢.

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٠١، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠.

(٥) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣١٦، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٩٣.

وفي نفس السنة ورد على السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ أمر ملكي عن الخاقان الأعظم المغولي أوكتاي كان نصه « يعلم العاهل العادل السلطان علاء الدين أننا قد انتهجنا منهجاً حسناً في الحكم وسياسة الرعية، والقادمون والذاهبون عنك راضون، ولقد سمعنا ورضينا كل الرضا، وأرسلنا إليك ما يعبر عن رضانا ومودتنا، وأردنا أن تبقى على الدوام سعيد القلب في ملكك، ولما كان الله تعالى قد جعلنا عظماء وأعزنا ووهب سطح الأرض لقبيلتنا، ولما كنت أنت تسلك الطريق المرضى، فقد أصبح واجباً علينا إظهار حالنا لك، واطلاعك عن طريق الرسل والمؤتمرين بالأمر، ونحن إذا أظهرنا أحوالنا، ولم يُسمع لنا كان جزاء من لايسمعون أو يلوون رؤوسهم أن يقتحم جيشنا ولايتهم، فيقتلهم ويأسر النساء والأطفال، ويغير على الأموال، ويخرب المتاع، وينزل به الضرر والسوء، ولانكون نحن السبب في ذلك، كتب في سنة بيجين سنة ٦٣٣هـ من مقام بلاط سبزه[١] .

ولم يجد السلطان السلجوقي ا لمسلم حرجاً في إعلاء الولاءللمغول الوثنيين، وأمر بإعداد التحف والهدايا والطرائف الرومية وإرسالها إلى بلاط الخاقان المغولي أوكتاي قآن، فأصبحت بلاد الجزيرة بذلك – بعد أن تراجع المغول عنها شرقاً وعاد الأيوبيون عنها غرباً – ساحة مفتوحة أمام الجيش السلجوقي المدعم بقوات خوارزمية.

وقد بادر هؤلاء الخوارزميون بالتوجه إلى حليف سلاجقة الروم الملك المنصور صاحب ماردين، فنزل إليهم واشترك معهم في أعمال النهب والتخريب التي امتدت إلى مدينة نصيبين التي فعلوا فيها أعظم مما فعله الأيوبيون بمدينة دنيسر[٢] .

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٤٢ – ٢٤٣، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٩، وهو يذكر هذا الحدث في سنة ٦٣٠هـ ورواية ابن البيبي أدق للمعاصرة ووحدة الموضوع

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٩٥، عماد الدين خليل. الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠

كذلك اشترك الخوارزميون في محاصرة مدينة آمد سنة ٦٣٤هـ[١] وكان في نفوسهم الكثير من الحقد تجاه أهلها الذين كان - أغلقوا أسوارها في وجه السلطان الخوارزمي الراحل جلال الدين منكبرتي وقذفوه بالحجارة حين توجه إليهم لاجئاً من المغول الذين كانوا يطاردونه سنة ٦٢٨هـ، غير أن الشتاءالقارس في سنة ٦٣٤هـ قد حتم عودة الجيش السلجوقي والخوارزميين عنها إلى حين آخر[٢] .

وفاة السلطان علاء الدين

كان علاء الدين كيقباذ قد رأى أن يجمع الجند في سنة ٦٣٤هـ في عاصمته قيصرية استعداداً لغزو بلاد الشام، وأدخل عقب ذلك تعديلات جذرية في المناصب المهمة للدولة، فجعل ولاية عهده إلى ابنه الملك عز الدين قلج أرسلان كما فوض إلى قيرخان كبير أمراء الخوارزمية أمر العناية بسيواس[٣] .

ويظهر أن تكليف الخوارزمية بهذا الأمر كان يقصد به إبعادهم عن المشاركة في غزو الشام، فلم تكن سيواس واحدة من الإقطاعات الأربعة التي سبق أن أنعم السلطان السلجوقي بها على الخوارزمية، كما أن موقعها الجغرافي في شمالى هضبة الأناضول يجعلها بمنأي عن الطرق الجنوبية المؤدية إلى شمالي الشام.

ولم يمهل القدر السلطان علاء الدين كيقباذ طويلاً ، فقد توفى فجأة في السابع من شوال سنة ٦٣٤هـ[٤] ، فبادر ابنه غياث الدين كيخسرو إلى تسيير الدعاة إلى أكابر الأمراء في الدولة ، يدعوهم إلى موالاته ومناصرته في

---

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٢.

(٢) ابن البيبي أخبار سلاجقة الروم ص٢٤٠.

(٣) ابن البيبي : المصدر السابق ص٢٤٥.

(٤) الذهبي : العبر جـ٥ ص١٣٩، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص١٦٨.

الوصول إلى العرش بدلاً من ولي العهد عز الدين قلج أرسلان، فوجد استجابة سريعة من معظمهم[١].

وتشكلت جبهة معارضة تكونت من كبير الأمراء كمال الدين كاميار، وقيرخان رئيس الخوارزمية، والأمير حسام الدين قيمري الذي أخذ يقول «إن الملك عز الدين موجود في (كيقبادية)، ولابد لنا من الحفاظ على عهدنا مع السلطان السابق، وذلك بأن نجلس عز الدين على العرش، ومن عارضنا أحللنا دمه، الجيش معنا ، وولاية العهد بأيدينا، وإذا عارضنا مؤيدو غياث الدين حطمناهم، فوافق قيرخان رئيس الخوارزمية على هذا الأمر بينما توقف فيه كبير الأمراء كمال الدين كاميار، والتمس لنفسه حججاً وتعلات، وأخيراً وبعد صلاة العشاء رأى الأمراءالثلاثة أنه لاجدوى من المماطلة والمضايقة، فدخلوا المدينة وهنأوا السلطان غياث الدين كيخسرو بالسلطنة، وحلفوا له يمين الولاء[٢].

وبالطبع أدى هذا التلكوء في إعلان الولاء من قبل رئيس الخوارزمية إلى اعتمال بواعث الشك في نفس السلطان السلجوقي الجديد وبالتالي استجاب لوشاية أحد كبار الأمراء ويدعى سعد الدين كوبك حين ألصق تهمة باطلة بقيرخان فزعم للسلطان السلجوقي بأنه سيضرب صفحاً عن الولاء له، وسيغرى به الأعداء إذا ذهب عن هذه المملكة إلى مكان آخر، حيث إنه قد وقف على ما للملك السلجوقي والجيش من دخائل والرأي أن يقيد لكي يلزم الآخرون جادة الإخلاص رعباً ورهباً، ولايفكرون في مفارقة هذه الحضرة، فأمر السلطان باحضاره فحبسوه في مسجد قصر السلطنة، وحملوه بالليل مقيداً إلى قلعة «زمندو» فابتلى هناك بمرض وتوفى[٣].

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٤٨.

(٢) ابن البيبي :المصدر السابق ص٢٤٩.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥٠.

التحرك الخوارزمي الثاني (الأناضول - الجزيرة)

لما سمع الأمراء الآخرون من الخوارزمية بذلك الأمر لاذوا جميعاً بالفرار، فعمَّ التزلزل وفشى الاضطراب في البلاد، وتعرضت الولاية بأسرها للنهب والغارة، فقد انطلق الخوارزميون في اتجاه الشرق إلى ملطية ثم عبروا الفرات إلى خرتبرت (حصن زياد)[1] فاعترضهم شمس الدين بيرم صاحب الحصن والأمير سيف الدولة ارتقش قائد جند ملطية مع عسكر من الروم فأرسل الخوارزميون إليهم برسالة مضمونها «قد انتقلنا من التشرد إلى الهناء والدعة في ظل السلطان السابق، فلما انتقل إلى جوار ربه ألقيتم بقائدنا «قيرخان» في السجن دون جرم جناه، فتركنا خدمة هذه الأسرة الملكية خوفاً على أرواحنا، وانطلقنا نجوس خلال الديار طلباً للرزق، والمصلحة أن تعودوا أدراجكم وألا تلجئونا إلى الإعراض عن رعاية حقوق النعمة وأكل الخبز

= ويروي المؤرخ ابن واصل (ت٦٩٧هـ) في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ٥ ص١٣٥ أن الذي قُبِضَ عليه هو بركة خان الذي كان أكبر مقدمي الخوارزمية ثم أنه قد خلص فيما بعد من يد غياث الدين كيخسرو ملك الروم. وقد نقل عنه هذا الرأي المؤرخ أبو الفداء (ت٧٣٢هـ) في كتابه المختصر في أخبار بني البشر جـ٢ ص١٥٩، كما نقله أيضاً المؤرخ ابن الوردي (ت٧٤٩هـ) في كتابه تتمة المختصر في أخبار بني البشر جـ٢ ص٢٣٧، ونقلت هذا الرأي أيضاً الدكتورة عفاف صبره في كتابها التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٢، ويخالف هذا ما أوردته في المتن منقولاً عن ابن العديم (ت٦٦٦هـ) في كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٣٢، والذي يؤكد فيه أن القبض قد تَمَّ على قيرخان وأنه توفي في السجن، وكذلك عن ابن البيبي (ت٦٨٤هـ) في كتابه أخبار سلاجقة الروم ص ٢٥٠، وروايتيهما أدق وأصح فابن العديم قد أوفد في السفارة من حلب إلى قيصرية في أيام السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو وابن البيبي أسبق زمناً ومعاصرة من ابن واصل وأبي الفداء وابن الوردي، فقد كانت أمة منجمة للسلطان علاءالدين كيقباذ، وكان أبوه مجد الدين محمدالترجمان رئيس ديوان الإنشاء الخاص بهذا السلطان.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٣، العريني: المغول ص ١٨٢.

obeikandl.com

والملح[١] غير أن جند الروم لم يعبأوا بهذه النصائح لفرط ما بهم من غرور وعجب، واصطفوا في مواجهتهم للقتال فقتل شمس الدين بيرم صاحب خرتبرت وأسر سيف الدولة ارتقش، واستولى الخوارزميون على الكثير من الخيول والأمتعة من تلك المعركة[٢] .

ثم انحدر الخوارزميون جنوباً فأغاروا على بلد سُمَيْساط - الواقعة غربي الفرات التي يقول عنها ياقوت الحموي، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن[٣]- فغزوه، ثم واصلوا الانحدار جنوباً إلى داخل بلاد الجزيرة فاستولوا على مناطق قريبة من حرّان والرها والرقة وسروج وغيرها من المواضع[٤] .

وأسفر هذا الوضع الجديد للخوارزميين في بلاد الجزيرة عن نتائج خطيرة فقد أضحى ملوك الشام وديار بكر وربيعة ومضر وباقي الجزيرة خائفين محترزين خشية ما يصدر عن هؤلاء الخوارزميين من إغارات ومفاجآت، واضطروا اتقاءً لذلك إلى إرسال الأتاوات من كل صوب إلى قوادهم الذين بذلوا لهم نظير ذلك العهود والمواثيق بعدم الاعتداء، غير أنهم كانوا يتوغلون في بعض الأوقات داخل الحدود، ويحولون دون تردد القوافل جيئة وذهاباً[٥].

ويعكس هذا الموقف الخطير مدى الضرر الاقتصادي الذي أصاب هذه المنطقة من جراءنزول الخوارزميين فيها، ففقدان حالة الأمن والاستقرار يؤثر حتماً على استمرار عمليات الزراعة والحصاد، ويشل حركة الرعي، كما أن تهديد القوافل التجارية يؤدى بدوره إلى توقفها أو تحولها إلى طرق أخرى

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥١.

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣، ويحدد كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٩، مكان خرتبرت على الضفة الجنوبية لنهر الفرات الأعلى.

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣، وانظر ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص٢٥٨

(٤) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥١.

(٥) ابن البيبي : السابق ص٢٦١.

obeikandi.com

بعيدة وآمنة، فيترتب على ذلك الركود الاقتصادي ىدي يستل في قلة المعروض من السلع وبخاصة الغذائية منها، وارتفاع الأسعار ,تفاقم الغلاء، فيعجز الأهالي عن تصريف شئون حياتهم.

وقد حاول السلطان السلجوقي الجديد غياث الدين كيخسرو معالجة هذا الأمر فأرسل إلى الخوارزميين «مجد الدين الترجمان» الذي كان قد نال الحظوة عندهم منذ أيام سلطانهم الراحل جلال الدين منكبرتي (ت/٦٢٨هـ) فدعاهم إلى العودة إلى بلاد الروم على سبيل استمالتهم وإنالتهم المقصود، فلزموا حسن الاستماع ولبسوا خلع السلطان وفي اليوم التالي – بعد الاجتماع – استدعوا الرسول وقالوا له: «قد تفرقنا بسبب وقعة «قيرخان» وفي الطريق أُرغمنا على الاشتباك مع الأمراء الذين كانوا قد جاءوا لاستردادنا، فأنزلنا بهم هزيمة نكراء، ولازلنا إلى الآن نخوض في تيه تلك العثرة، فكيف يتسنى لنا أن نضع أقدامنا على بساط تلك الحضرة برغم كل ما صدر عنا من تجاوزات، لكننا نعدُّ هذه البلاد التي ابتلعناها من جملة ممالك السلطان، فنتولى تصريف أمورها إذا ما أنعم السلطان علينا بها بمنشور سلطاني باعتبارها إقطاعاً، ويكون له علينا أن نجعل أرواحنا فداء له في مواجهة كل عدو يعهد به إلينا، كما نجعل الخطبة والسكة باسم السلطان، ولن نسمح بالقطع (تعرض ممالك السلطان لأي اعتداء من جانب عسكر الخوارزميين)، فقرَّ القرار على هذا كله، وبادروا بتغيير الخطبة والسكة، وقد راق ذلك الرأى للسلطان[1] السلجوقي الذي كان في حاجة إلى تثبيت سلطانه داخل بلاده، كما كان بحاجة أيضاً إلى تدعيم علاقاته بالقوى السياسية المجاورة وبخاصة المغول والأيوبيون في الجزيرة والشام.

---

(١) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٣.

ثانياً : الأيوبيون

أسفر نزوح الخوارزميين إلى إقليم الجزيرة، واستيلاؤهم على مناطق قريبة من حرّان وسروج والرها والرقة كما سبق القول ، إلى إثارة فزع الأهالي هناك لما جبل عليه هؤلاء الخوارزميون من خشونة وقسوة وجفاء يفوق الوصف، وفي فترة بالغة الدقة في تاريخ الشرق الأدنى المهدد شرقاً من المغول وغرباً من الصليبيين، والمبتلى بالصراع الدائر بين حكامه الأيوبيين وخصومهم سلاجقة الروم في الشمال .

وكان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل يحكم الجزء الشمالي من بلاد الجزيرة من قبل أبيه الكامل، وكان يتخذ من حصن كيفا الواقع على نهر دجلة مقراً لحكمه(١) ، فأصبح لزاماً عليه آنذاك أن يفعل شيئاً ما في مواجهة هذه المشكلة التي سببها الخوارزميون بنزولهم المفاجئ في قرب هذه المناطق.

ولم يلبث كبار أمراء الخوارزميين وعلى رأسهم بركة خان، وكشلو خان، وصاروخان وبردى خان ومعهم جماعة كبيرة من الأمراء والمقدمين والعساكر تزيد عدتهم على خمسة عشر الف فارس أن توجهوا إلى الصالح نجم الدين أيوب، فاظهر البشر بقدومهم عليه، وأكرمهم، وأنعم عليهم، واضطر إلى إعفاء جميع الأمراء الذين كانوا معه من غلمان أبيه وقرابته من وظائفهم، وأعطى أخبازهم للخوارزمية(٢) .

وهكذا وضع الصالح نجم الدين أيوب نفسه في معرض الخطر، فالخوارزميون كانوا يدركون تماماً أنه قد وضع نفسه بين أيديهم دون نصير أو حام، وأبوه الكامل في مصر، لم ينس بعد تطلع ابنه إلى احتلال عرشه في

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٣ .

(١) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاءالقلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٣٠، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣١١ .

أثناء خروجه إلى الشام منذ بضعة سنوات مضت .

وكان الأمراء المفارقون للصالح نجم الدين أيوب قد توجهوا إلى مصر لخدمة أبيه الكامل فتحدثوا بأغراضهم، فشق ذلك على أبيه، وسيّر إليه، وأنكر عليه ما فعله، فكتب إليه يعرفه عذره، وهو أن الخوارزمية قد وصلوا إليه في خمسة عشرة الف فارس ويزيدون، وما كان له قدرة بمحاربتهم وطردهم من البلاد، وأنه خاف أن يأخذوا البلاد، ويستولوا عليها ويخرجوه منها، فبان عذره عند والده، وشكره على مافعله(١) .

فلما أطمأن الصالح نجم الدين أيوب إلى موافقة أبيه بادر إلى استخدامهم وأقطعهم مواضع بالجزيرة، وتقوى بهم حتى هابه جيرانه الملوك(٢) ومنهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك الأرتقي المنصور صاحب ماردين.

وجاءت وفاة الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب دمشق في الرابع من المحرم سنة ٦٣٥هـ اختياراً لمدى قوة الصالح نجم الدين بعد تدعيم جيشه بالخوارزميين، ذلك أن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل الأيوبي لما ملك دمشق بعد أخيه الأشرف سيّر ولده الملك المنصور نور الدين محمود إلى الشرق، فتسلم ما كان بيد الملك الأشرف من بلاد الجزيرة وهو سنجار ونصيبين والخابور، فلما نازل السلطان الكامل بن العادل الأيوبي دمشق في جمادى الأولى من نفس السنة أرسل إلى ولده الصالح نجم الدين يأمره بقصد سنجار، فقصدها ونازلها، فسلمها إليه ابن عمه الملك المنصور بالأمان،

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٥٦، ابن خلدون : لعبر جـ٥ ص٣٥٥.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٣١.

فتسلمها وما معها من البلاد[١] .

وأراد الصالح نجم الدين أن يوطد علاقته بالخوارزمية فزوّج أخته من والدته من بركة خان كبير الخوارزمية، وتقرر أن يزوج ولده المغيث عمر ابنة بركة خان، وجعله بينهم يركب معهم، وينزل معهم، ويسير حيث يسيرون،ولم يزل الأمر كذلك وهم يظهرون طاعتهم لنجم الدين حينا ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما لاتصل قدرته إليه[٢] .

رأى الصالح نجم الدين - تنفيذاً لأمر أبيه السلطان الكامل - النزول على الرحبة الواقعة غربي الفرات - وكانت تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه الأيوبي صاحب حمص وكان في موقف عداء مع السلطان الكامل منذ خروجهما معاً لمحاربة علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم سنة ٦٣١هـ، فحاصرها نجم الدين فلما ورده الخبر بوفاة أبيه الكامل طمع فيه الخوارزميون، وخرجوا عن طاعته وأرادوا القبض عليه، فخافهم، وترك خزائنه وأثقاله وعبر الفرات من عند دير شير، فنهبوا الجميع، ولما وصل إلى سنجار سار إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فحاصره فيها في ذي القعدة من نفس السنة، فأرسل الصالح نجم الدين إلى لؤلؤ يسأله الصلح فأبى، وقال: «لابد من حمله إلى بغداد في قفص، وكان لؤلؤ والمشارقة يكرهون مجاورته وينسبونه إلى الكبر والتجبر والظلم»[٣] .

أما الخوارزميون فقد أخذوا يتنقلون من مرج إلى مرج يأكلون ويشربون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٥٣، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٤.

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٩٧، وهو يذكر أن أخت الصالح لوالدته كان أبوها الفارس قليب مملوك السلطان الكامل وكان قد سلم إليه أمر حران والرها.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٠٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٧٨، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦١

فبعث إليهم الملك الصالح يستنجد بهم، وهم يتغافلون عنه[١] ثم توجهوا إلى قلعة حرّان فأجفل أهلها ، وكان بها الملك المغيث بن ا' سالح نجم الدين أيوب، فخاف منهم وسار مختفياً نحو قلعة جعبر، فصبوه، ونهبوه ومن معه، وأفلت في شرذمة من أصحابه إلى منبج مستجيربعمة والده «ضيفة خاتون» وكانت تحكم حلب وصاية على حفيدها الصغير، فاعتذرت له بوجه لطيف وقيل له «نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ولايمكننا منعك منه»[٢] .

وهكذا أصبحت بلاد الجزيرة مرتعاً للفوضى السياسية والعسكرية، فسلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو كان قد ارتبط بعلاقة المصاهرة الجبرية مع الملك الصغير الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي صاحب حلب، وفرض عليه أن تكون السكة والخطبة في حلب باسمه[٣] ثم أخذ يضغط الآن بكل قواه على بلاد الجزيرة، ومن ثمة فقد عزم أن ينتزع من أملاك الصالح نجم الدين أيوب آمد وسميساط ويضمهما إلى ممتلكاته الخاصة، وعلى انتزاع الرها وسروج وضمهما إلى الملك الناصر صاحب حلب، وعلى إقطاع عانة وغيرها من بلاد الخابور لحليفه الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وإعطاء سنجار ونصيبين لحليفه الملك المنصور الأرتقى صاحب ماردين[٤] .

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٢، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩١.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٣، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٢، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٣٩.

(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧٠، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٥.

openkandil.com

أدرك الخوارزميون - حينذاك - خطورة الموقف بالنسبة لهم، والذي كان يعنى في أقل درجاته العودة بهم مرة أخرى لدائرة الخضوع لسلطان سلاجقة الروم، فاتجهوا إلى التحالف مع الملك المنصور الأرتقى صاحب ماردين[١] القريبة من حرّان التي كانوا يقيمون حولها.

وكان الملك المغيث بن الصالح نجم الدين قد نجح في العودة خفية إلى حران حيث وافاه رسول أبيه القاضي بدر الدين السنجاري قاضي سنجار[٢] وكان نجم الدين قد دلاه طوعاً من سورها ليلاً في أثناء الحصار، فمضى إلى الخوارزميين وشرط لهم ما أرادوا حتى إنه بذل لهم حرّان والرها وغيرهما[٣] وأطمعهم في أن صاحب الموصل في جمع يسير، ومعه أموال عظيمة وخيل، وأن أمواله وأموال عسكره ستكون غنيمة لهم وحدهم، فساقوا جميعاً من حران جرائد وكبسوا بدر الدين لؤلؤ على سنجار، فانهزم عسكره منهم أقبح هزيمة وفرّ هو وحده على فرس سابق إلى الموصل فنهبوا أمواله وخزائنه وجميع ما كان معه[٤].

وكثرت الغنائم التي حصلها الخوارزميون من بدر الدين لؤلؤ جداً حتى إن الدواة المفضضة التي كانت تساوي مائتي درهم بيعت بخمسة دراهم، والطشت والإبريق بعشرين درهما، واقتسموا الكوسات والنقارات، واستغنى الخوارزميون من جراء ذلك كثيراً[٥].

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤١، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٨٧، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٠.

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٢، الذهبي: العبر جـ٥ ص٣٥٥، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣١٥.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٣٣.

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٠٤، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦١، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٠.

أما النتائج المهمة التي ترتبت على ذلك كله فكانت خروج الصالح نجم الدين – بفضل الخوارزميين – من الحصار بسنجار وعودته إلى مقر حكمه في كيفا، واسترداد مهابته بين ملوك الشرق، وتوقف الحلف المعقود بين الخوارزميين وصاحب ماردين، والاستعداد لمواجهة تسلط سلطان سلاجقة الروم الذي كان قد سير عسكره إلى آمد، وبها المعظم غياث الدين تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، فأخذ الروم بعض قلاعها وأقاموا محاصرين القلاع الأخرى، فسار إليهم الخوارزميون بأمر الصالح نجم الدين أيوب، فأوقعوا بجند الروم وأزاحوهم عن آمد، وأخرجوا تورانشاه من حصره فتوجه إلى أبيه في حصن كيفا(١).

الخوارزميون والشام

تتابع على حكم مدينة دمشق عاصمة الشام في سنة ٦٣٥هـ أربعة من الملوك الأيوبيين أولهم الملك الأشرف بن العادل الذي توفى في الرابع من المحرم، ثم أخوه الصالح اسماعيل بن العادل الذي أخرج منها في التاسع عشر من جمادى الأولى من قبل أخيه السلطان الكامل بن العادل الذي توفى في الحادي والعشرين من رجب من نفس السنة، وأخيراً الملك الجوادبن ممدود بن العادل الأيوبي(٢).

وفي سنة ٦٣٦هـ خاف الملك الجواد من السلطان العادل الثاني الذي خلف أباه السلطان الكامل في حكم مصر – وكان على خلاف مع أخيه الصالح نجم الدين أيوب صاحب الجزيرة – فراسل الملك الجواد الملك الصالح

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٣، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٩٠، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧١.

(٢) أبو الفدا المختصر جـ٣ ص١٦٠– ١٦١، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٤٨.

نجم الدين أيوب، واتفقا على أن يسلم إلى الملك الصالح دمشق، ويعوضه الملك الصالح عنها الرقة وسنجار وعانة، وحلف كل منهما للآخر(١).

وقد رتب الصالح نجم الدين قبل خروجه من الشرق مكانه ابنه الملك المعظم تورانشاه فأقام في حصن كيفا، كما رتب النواب بآمد وديار بكر، وأعطى حران والرها للخوارزمية الذين كانوا في خدمته(٢) فاستقر بعضهم هناك، وصحبه بعضهم إلى دمشق التي تحرك إليها في مستهل جمادي الأولى من نفس السنة(٣).

التحرك الخوارزمي الثالث (حرّان - دمشق)

ولم يقتصر الجيش الذي صحب الصالح نجم الدين على خواصه والخوارزميين فقط فقد وافته نجدة طلبها من الأمير بدر الدين لؤلو صاحب الموصل بعد أن صالحه(١) كما وصلته قوات أخرى عند وصوله إلى دمشق على رأسها الملك المظفر صاحب حماة في جمادى الآخرة(٤).

وفي دمشق - وبعد انتهاء إجراءات التسليم - خرج الملك الجواد وركب والعسكر في خدمته، فقال لهم: سلطانكم الملك الصالح، فحلّف الصالح العساكر في تلك الساعة، إلا الأمير سيف الدين على بن قليج، فإن الصالح قبض عليه(٥) وهكذا احتوى الصالح نجم الدين أيوب على عسكر دمشق.

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٢٤، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٣.

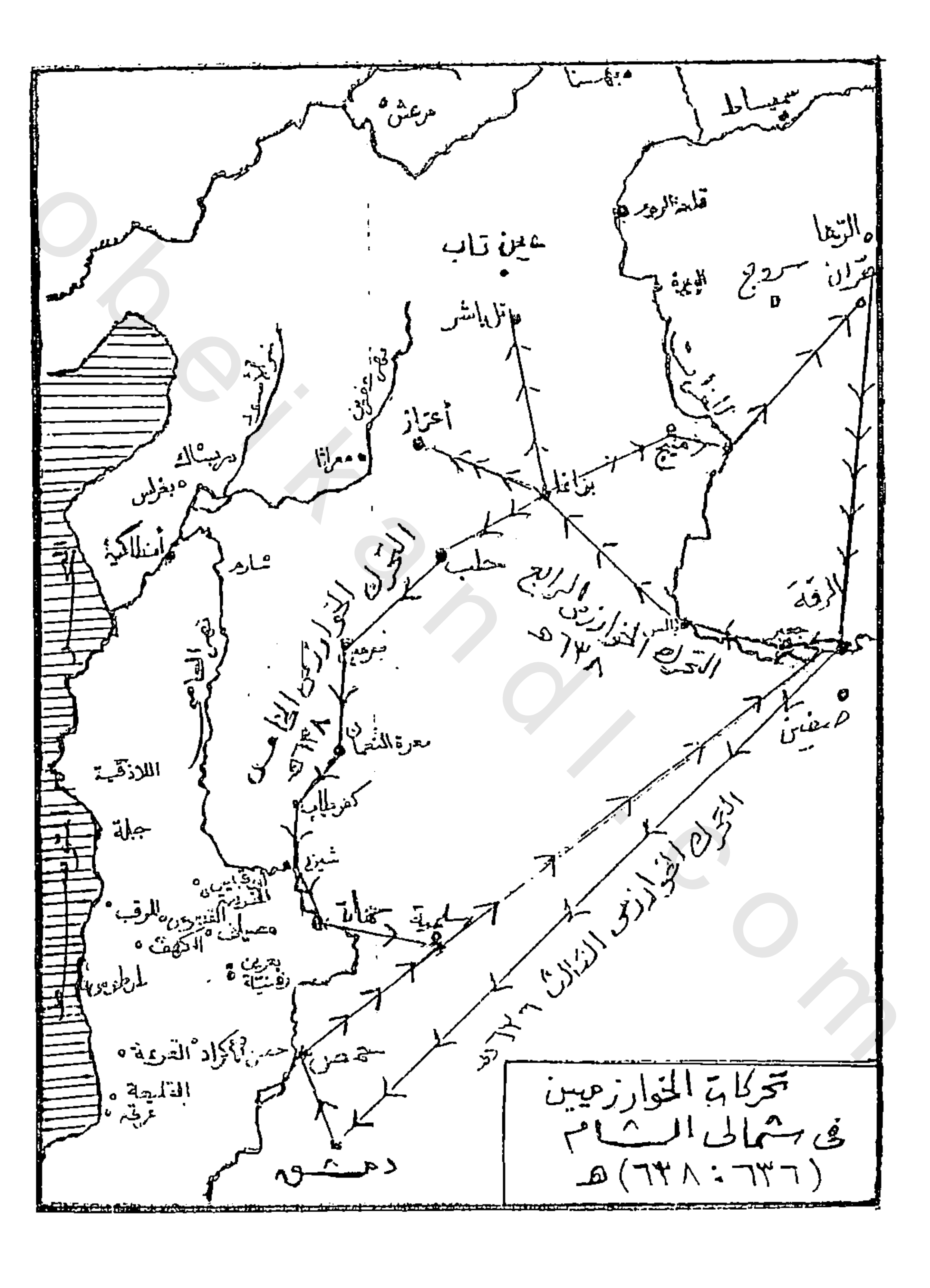
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٤ - ٢٤٥، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٦٨.

(٣) المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧٩ - ٢٨٠؛ ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٠.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٥، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٤.

(٥) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٣.

obeikandl.com


تحركات الخوارزميين
فى شمالى الشام
(٦٣٦ : ٦٣٨) هـ
مرعش
سميساط
قلعة الروم
عين تاب
تل باشر
الرها
حران
سروج
البيرة
أعزاز
منبج
بزاعة
حلب
دربساك
بغراس
أنطاكية
الرقة
صفين
معرة النعمان
كفرطاب
شيزر
حماة
سلمية
اللاذقية
جبلة
مصياف
الكهف
المرقب
حمص
حصن الأكراد
القليعة
عرقة
دمشق


obeikandl.com

ولما سافر الملك الجواد إلى الشرق، واستقر الملك الصالح بدمشق طلب منه الملك المظفر صاحب حماة أن يأذن له في منازلة حمص وأخذها من صاحبها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه لعداء بينهما منذ أيام السلطان الكامل، فوافق الصالح، وخرج الخوارزميون من دمشق لمحاصرة حمص تعضيداً للملك المظفر(١) فأرسل أسد الدين شيركوه مالاً كثيراً، وفرقه في الخوارزميين فقبلوا ذلك منه، فلما عرف الملك المظفر ذلك خاف من الخوارزميين ورحل عن حمص عائداً إلى بلده حماة، أما الخوارزميون فتركوا حمص ورجعوا إلى البلاد الشرقية (حرّان والرها)، وأقاموا في أخبازهم التي أقطعها لهم الملك الصالح نجم الدين أيوب(٢).

أما الملك الجواد فإنه لما وصل إلى قرية ضُمَيْر الواقعة في آخر حدود أعمال دمشق التي خرجت من يده، رأى بدوياً، فاستراب منه، وقبض عليه، فوجد معه كتباً من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزميين – وكانوا آنذاك على حمص – يحسن لهم القبض على الملك الجواد، وأخذ ما معه، وأن يسيروه إليه، فعند ذلك أخذ طريق السَّماوة، وعرج عن حمص، وسار إلى عانة – وهي جزيرة في نهر الفرات شمالي هيت – فدخلها وأقام بها(٣).

ولم تكن تحركات الملك الجواد بمنأى عن أنظار الخوارزميين ومن ذلك أنه لما سار إلى الرقة بادروا إليه فأخرجوه عنها(٤) فسار إلى سنجار في مائتي

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٥، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٣، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤١.

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٢٨٠، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣١، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٦٩.

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٤-٢٤٥.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٤٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨١ – ٢٨٢.

فارس حين علم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحاصرها - وكان بها أيدمر مملوك الجواد - فارتحل بدر الدين عنها متوهماً في كثرة جند الجواد الذي دخلها، وأقام بها سنة، حاصره خلالها الخوارزميون ثم عادوا عنه[١].

وفي ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ تمكن بدر الدين لؤلؤ من الاستيلاء على سنجار من يد الملك الجواد[٢] فلم يبق بيده إلا عانة فاشتراها الخليفة العباسي المستنصر بالله منه بمائة وعشرين ا لف درهم، فسار الجواد بعد تسليمها إلى حرّان، وهي بيد الخوارزمية. فأقام عندهم سنة، وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها، ثم عاد معهم إلى حرّان[٣] كما سيأتي القول.

وكان الصالح نجم الدين أيوب قد توجه من دمشق في شوال سنة ٦٣٦هـ صوب مصر على نية اعتلاء سدة العرش فيها بعد أن حرضه كبار الأمراء في مصر، ووعدوه بخلع أخيه العادل وإجلاسه مكانه، وحين وصل إلى نابلس من أرض فلسطين تفرق عنه عسكر دمشق، ولم يتبق معه إلا بعض خواصه الذين قدموا في صحبته من الشرق، فقد انتشر الخبر بأن الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك آنذاك، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص قد استوليا على دمشق في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة ٦٣٧هـ، وأسرا ابنه الملك المغيث في قلعتها[٤].

وفي شهر ربيع الأول وقع الصالح نجم الدين أيوب في أسر ابن عمه الملك

---

(١) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٢ ص١٦٦، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٠.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص١٣١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٢٠، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٤٥، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٢.

obeikandi.com

الناصر داود صاحب الكرك الذي سجنه بقلعتها حتى أواخر رمضان من نفس السنة[١] .

وفي أثناء فترة اعتقاله بالكرك تعرض نجم الدين لخطر الهلاك من قبل خصومه الأيوبيين، فقد أرسل سلطان مصر الملك العادل إلى الناصر داود، وطلب تسيير أخيه نجم الدين إليه وعرض أن يعطى الناصر مقابل ذلك أربعمائة ألف دينار، وأن يفتح دمشق، ويسلمها إليه، فسيّر إليه الناصر الجواب يقول: «إذا فتحت دمشق وسلمتها إليّ سلمته إليك»[٢] كذلك أرسلت والدة السلطان العادل من مصر إلى الملك الناصر داود بقفص حديد ليجعل فيه الملك الصالح نجم الدين ويرسله إلى الديار المصرية وبذلت فيه - علاوة على ما عرضه ابنها - للملك الناصر مائة ألف دينار، وكاتبه الصالح إسماعيل صاحب دمشق وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، قبل وفاته في رجب سنة ٦٣٧هـ - في إرساله إلى دمشق وبذل الصالح إسماعيل فيه للناصر ربع دمشق فما أجاب[٣] .

فَلِمَ توقف الناصر داود في تسليم الصالح نجم الدني أيوب لخصومه من الأيوبيين المتعطشين لإراقة دمه؟

أهو عامل القرابة والنسب؟ فالرجلان أبناء عمومة صريحة النسب، والصالح نجم الدين هو أخو الأميرة عاشوراء ابنة السلطان الكامل الذي زوجها للناصر داود، وأخيراً فالرجلان مولودان في سنة ٦٠٣هـ[٤] فهما الآن في سن واحدة هي الرابعة والثلاثون.

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٦٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٩.

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٩.

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٦٤ - ٢٦٥، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٣٨.

(٤) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣١٣، ص٣٣٠، ص٣٤٤.

obeikandl.com

أهو عامل النفع المادي؟ فقد كان الناصر داود يدرك أن أحداً من ملوك الأيوبيين القائمين بالأمر في مصر والشام، لن يجديه نفعاً عملياً يوافق ما في نفسه، وقد حكى الصالح نجم الدين أيوب نفسه حقيقة هذا الأمر – بعد أن أصبح سلطاناً على مصر – للمؤرخ المعاصر أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي الشهير بسبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ) فقال: «حلفني على شيء ما تقدر ملوك الأرض عليه وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار مضر وغيرها ونصف ديار مصر، ونصف مافي الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها فحلفت من تحت القهر والسيف»[١].

أهو عامل الخوف من الخوارزميين ؟ يقول النويري «وقيل: كان السبب في امتناع الملك الناصر عن تسليمه لمن بذل فيه ما بذل أن الصالح نجم الدين أيوب كان قد أرسل كاتبه جمال الدين بن مطروح إلى الخوارزميين في الحضور لمحاصرة دمشق – بعد أن استولى عليها عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك بمناصرة أسد الدين شيركوه صاحب حمص – فتوجه ابن مطروح لذلك، فلما قبض على الصالح نجم الدين، أرسل ابن مطروح رسولاً على النُجب إلى الملك الناصر، يقول له : إن فرط في الملك الصالح أمرٌ، فاعلم أن الخوارزميين لايبقون لك في البلاد قعر قصبة، فقد حلفوا على ذلك[٢].

ويؤكد المؤرخ المعاصر ابن واصل على دور جمال الدين بن مطروح فى الاتصال بالخوارزميين فيقول «وكان قصاد الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة وجواسيسه لاينقطعون عن الخوارزمية والملك الناصر داود، وقد أسفر ذلك عن سفر جمال الدين بن مطروح – كاتب الصالح نجم الدين أيوب – بتقرير بينه وبين الملك المظفر إلى الشرق، حيث اجتمع هناك بالأمير حسام الدين بركة

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٢٨؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣١٠.

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٦٥.

خان - مقدم الخوارزمية - وتحدث معه في القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، وكانت معه أيضاً رسالة من الملك الناصر داود مضمونها «إن الملك الصالح نجم الدين لم يتركه الملك الناصر في الكرك معتقلاً، وإنما صان بانزاله الكرك مهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل وعمه الملك الصالح، وإنه سيخرجه ويملكه البلاد، والمصلحة أن تتحركوا، وتغيروا على بلاد حلب وبلاد صاحب حمص»، ثم عاد جمال الدين بن مطروح بعد أن قضى هذا المهم إلى حماة فأقام بها(١) .

وفي تقديري أن العامل الثالث وهو الخوف من الخوارزميين كان أقوى العوامل الثلاثة في التأثير على الناصر داود، وكفه عن تسليم الصالح نجم الدين أيوب لمن يطلبه، فقد أيقن الناصر داود أن هؤلاءالخوارزميين مصممون على إنقاذ صاحبهم نجم الدين، أو الانتقام له إن قتل، وإن هذا - حالة حدوثه - سيعنى في المقام الأول تدمير كل ممتلكاته في الكرك وما حولها، وتعريضه هو وعائلته لخطر الهلاك أو التشرد .

أيا كان الأمر، فقد أفرج الناصر داود عن الصالح نجم الدين وتوجها سوياً من الكرك إلى القدس، وعند الصخرة المقدسة تم إجراء التحالف بينهما ضد العادل الثاني سلطان مصر، والصالح إسماعيل صاحب دمشق(٢) على ما سبق الإشارة إليه .

---

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٦٥ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٤٨ - ٢٥٠، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٩٢-٢٩٣ .

(٢) عفاف صبرة : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٧٨ فهي تقول «لذلك أفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين وهوبمصر، واجتمع عليه رجاله من الخوارزمية حيث توجهوا إلى القدس وتحالف معه على أن تكون ديار مصر للصالح والشام و المشرق للناصر وأن يعطيه مائتي الف دينار، وفعلاً نجحوا في خلع العادل في شوال سنة ٦٣٧هـ»، وقولنا «نجحوا» يفيد أن الخوارزمية هم الذين قاموا بخلع العادل في مصر، وهذا غير صحيح، وعندما رجعت إلى المصدر الذي اعتمدت هي عليه وهوالمقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٩٣ لم أجد شيئاً يفيد ذلك، والصحيح أن الخوارزميين كانوا مقيمين في حران منذ غادروا حمص سنة ٦٣٦هـ كما هو وارد بالمتن سلفاً، ولم يكن لديهم كيان عسكري

obeikandi.com

التحرك الخوارزمي الرابع (حرّان - حلب)

عاد الخوارزميون - كما سبق القول - عن حصار حمص سنة ٦٣٦هـ، وأقاموا في الشرق في بلد حرّان فلما بلغهم خروج الملك الصالح نجم الدين من دمشق متوجهاً إلى مصر امتدت أطماعهم في بلاد الجزيرة، فاستولوا على قلعة حران، وملكوها، ووضعوا أيديهم على أوشين - من بلد البيرة - وطمعوا في الوصول إلى بابها، وتعدى أذاهم إلى البلاد المجاورة[١].

وكثر تثقيلهم على الملك الحافظ نور الدين أرسلان بن السلطان العادل الأيوبي صاحب قلعة جعبر، وهو يداريهم ويبذل لهم الأموال ليكفوا عنه، واتفق مع خوفه من الخوارزميين أن أصابه الفالج، وكان يخاف من ولده أن يسلم لهم قلعة جعبر بعد أن مضى هذا الابن إليهم ليطلب منهم عسكراً ليحاصر أباه فيها[٢] فأرسل الملك الحافظ إلى اخته الملكة ضيفة خاتون الوصية على الملك الناصر صاحب حلب يطلب منها أن تقايضه بقلعتي جعبر وبالس، فاتفق الأمر بينهما على أن تعوضه بعزاز، وأعمال أخرى تعادل المجموع، فسيرت من حلب مَنْ تسلم قلعة جعبر في صفر سنة ٦٣٨هـ، ووصل الملك الحافظ إلى حلب في نفس الشهر، وصعد في المحفة إلى القلعة واجتمع بأخته الملكة، وتسلم نوابه قلعة عزاز وبلادها وما أضافوه إليها من الأعمال[٣].

حين علم الخوارزميون بالأمر اشتد حنقهم، فأغاروا على بلد «قلعة جعبر» ونهبوها، ووصلوا إلى بالس فأغاروا عليها أيضاً، ونهبوها، ولم يسلم

معروف أو مؤثر داخل مصر على الإطلاق.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٩، ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان جـ٣ ص١٠٨ أن قلعة جعبر تقع على نهر الفرات قرب صفين بين بالس والرقة.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٨ جـ٢ ص٧٣٣، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٨٠.

obeikandi.com

منها إلا من كان قد خرج عنها إلى حلب أومنبج[١] .

ولما عاث الخوارزميون في بلد قلعة جعبر وبالس وغيرهما خرج إليهم عسكر حلب، وتقدمهم الملك المعظم تورانشاه بن السلطان الكبير الناصر صلاح الدين، فنزل بالنقرة ثم رحلوا إلى منبج فأقاموا بها مدة[٢] فقصدهم الخوارزميون - بعد أن عبروا بجملتهم نهر الفرات من جسر الرقة - ومعهم جمع كثير من العرب مقدمهم الأمير على بن حديثة وكان أولاً مع الحلبيين ثم استوحش منهم، فاضطر عسكر حلب إلى التراجع والنزول في وادي بزاغاشمالى حلب، فقد كان عدده قليلاً لايزيد عن الف وخمسمائة جندي، لأن عسكر حلب الرئيسي كان موزعاً على أماكن متفرقة، فبعضه كان عند السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو نجدة له على المغول الذين تحركوا لقصد بلاده، وبعضه كان في قلعة جعبر يحفظها، وبعضه تفرق في القلاع التابعة لحلب مثل شيرز وحارم وغيرهما[٣] .

وقد انضم إلى الخوارزميين عدد من الملوك الأيوبيين انبعاثاً من مصالحهم الذاتية وأطماعهم الخاصة ومن هؤلاء الملك الجواد صاحب دمشق الأسبق، وولد الملك الحافظ صاحب قلعة جعبر، والملك الصالح ولد الملك المجاهد صاحب حمص،كما أرسل الملك المنصور الأرتقي صاحب ماردين نجدة إلى الخوارزميين، فكان جمعهم يزيد على اثني عشر الف فارس جياد غير الأتباع، وكانت القيادة الخوارزمية لبركة خان أكبر مقدميهم، ومعه من المقدمين

---

(١) ابن ايبك الدواداري :كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٢.

(٢) أبو الفدا : مختصر جـ٣ ص١٦٧، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ثيودور بيشوف: تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١١٧.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٢،نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٧٢.

صاروخان، وكشلوخان وبردي خان وغيرهم[١] .

وأخيراً التقى الفريقان على البيرة - وهي قرية في وادي بزاغا وهي غير البيرة الكبيرة التي تقع على نهر الفرات - في يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ، فصدم عسكر حلب - على قلته - الخوارزميين صدمة تزحزحوا لها، لكنهم تماسكوا وتكاثروا على العسكر الحلبي[٢] .

وجاء علي بن حديثة ومعه جموع العرب، فخرجوا من بين البساتين من وراء عسكر حلب، ووقعوا على الغلمان والركابدارية، وانتهبوا أثقال العسكر، وكان ضررهم شديداً للغاية، فانهزم الحلبيون بعد أن أحيط بهم، فتقهقروا راجعين من بزاغا إلى حلب، والخوارزميون في أثرهم يقتلون ويأسرون، وكان على رأس الأسرى الملك المعظم تورانشاه بعد أن ثبت في المعركة، وجرح جراحات مثخنة، وقبض كذلك على أخيه نصرة الدين وعامة الأمراء، وقتل في المعركة صاحب سميساط الملك الصالح بن الملك الأفضل ولد السلطان صلاح الدين، كما قتل ابن الملك الزاهر ولد السلطان صلاح الدين وجماعة كثيرة[٣] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٣، وينفرد المقريزي في السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣ بالقول: «وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل» وهو رأى لادليل عليه للعداوة المستحكمة بين الطرفين، وقد نقلت الدكتورة عفاف صبره في كتابها «التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية» ص٢٧٩ هذا القول عن المقريزي دون تمحيص فهي تقول «شارك الخوارزمية بدر الدين لؤلؤ في نفس العام سنة ٦٣٨هـ في إغارته على حلب حتى أصبح جيشه يقدر بحوالي اثني عشر ألفاً» والصواب ما أثبته في المتن عن المؤرخين المعاصرين ابن العديم وابن واصل.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٣.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٣٥٦، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٢٣٥، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٢.

obeikandi.com

ولم يسلم من العسكر الحلبي – في وادي بزاغا – إلا القليل، واستولى الخوارزميون على جميع ثقل هذا العسكر، وقتلوا بعض الأسرى ليشترى غيره نفسه منهم بالمال، فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً(١).

أما الأهالي في أعمال حلب فقد هرع معظمهم إلى مدينة حلب نفسها باحثين عن ملجأ يحميهم، فهاجمهم الخوارزميون بعنف، فتعرض هؤلاء العزل لكل فعل قبيح من النهب والسلب والسبي، وارتكب الخوارزميون من الزنا والفواحش والقتل ما يتركبه المغول وأمثالهم(٢) وتعرضت مدينة حلب نفسها لأخطار التدمير والتخريب وأمعن الخوارزميون في الأذى، فقطعوا الماء عنها(٣) حين نزلوا حول حَيْلان – وهي قرية من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء تسبح إلى حلب، وتدخل إليها قناة، وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب- وامتد الخوارزميون على النهر من هناك إلى قرية فاقين وقطعوا على جماعة من العسكر هناك أموالاً أخذوها منهم، وابتاعوا بها أنفسهم، وشرب الخوارزميون طول تلك الليلة، وقتلوا جماعة من الأسرى صبراً، فخاف الباقون، وقطعوا أمولاً على أنفسهم وزنوها، فمنهم من خلص، ومنهم من أخذوا منه المال، وغدروا به، ولم يطلقوه(٤).

وظلت قلعة حلب صامدة رغم ذلك كله، وقام من بداخلها في حفظ

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٧، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ثيودور بيشوف : تحف الأنباء ص١١٧.

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٦٦، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٢.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ص٧٣٥، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٨٠، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥١، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٤،عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٠، وانظر معجم البلدان لياقوت جـ٢ ص٣٣٢.

الأسوار والأبواب، زكان قد بقي بها جماعة من الجند لايزيدون عن مائتي جندي تحت قيادة الأميرين «شمس الدين لؤلؤ» و«عز الدين بن مجلى» فكان هؤلاء يخرجون إلى ظاهر المدينة ليتعرفوا أخبار الخوارزميين الذين بثوا سراياهم في أعمال حلب يشنون الغارة فيها حتى بلغتْ خيلهم إلى بلد «عزاز» و«تل باشر» و«برج الرصاص» و«جبل سمعان» و«بلد الحوار» و«ظرف العمق» وغير ذلك ثم فاجئوا أهل هذا النواحي على غفلة، فلم يستطيعوا الهرب، ومن أجفل منهم لحقوه، فأخذوا من المواشي والأمتعة والحرم والصبيان ما لايحد، ولايوصف، وارتكبوا من الفاحشة مع حرم المسلمين مالم يفعله أحد من الكفار كالمغول والقرامطة[١] .

وينبغي أن نتوقف هنا عند الدوافع العديدة التي حركت الخوارزميين للهجوم على مدينة حلب وأعمالها، والتي كان من أهمها :

أ – المقايضة التي تمت بين القائمين على الأمر في حلب وبين صاحب قلعة جعبر والتي أثارت حنق الخوارزميين وغيظهم كما سبق القول .

ب– تحريض الصالح نجم الدين أيوب – بعد أن علم بسقوط دمشق في أيدي عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص – للخوارزميين بأن يقوموا بمهاجمة التحالف الأيوبي المكون من ملوك دمشق وحمص وحلب التي كانت أقرب هذه المدن جغرافياً إلى أيدي الخوارزميين.

جـ– التحالف المكين بين الملك الناصر صاحب حلب وبين صهره السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الخصم اللدود للخوارزميين، وهو الذي اضطرهم إلى الفرار من بلاده سنة ٦٣٤هـ، بعد وفاة قائدهم قيرخان في سجنه .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٥ ص٢٨٤ .

د – تمتع حلب بمزايا اقتصادية عديدة وصفها الجغرافي المعاصر ياقوت الحموي في سنة ٦٢٥هـ بقوله «وهي مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء، ويزرع في أراضيها القطن والسمسم والخضروات والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح»(١) .

هـ – رفض الملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حفيدها الملك الصغير الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب طلب الأمير الخوارزمي محمد تركان خان بن بركة خان الخوارزمي ملك الخوارزمية خطبة ابنة الملك العادل الأيوبي، بل إنها أمرت بإهانة رسوله(٢) .

وبعد أن انتهى الخوارزميون من أمر مدينة حلب وأعمالها تحركوا في اتجاه الشرق، فوصلوا إلى منبج في يوم الخميس الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ، فاعتصم أهلها بسور المدينة، ولكن الخوارزميين تمكنوا من دخولها من المواضع الضعيفة في السور(٣) ووضعوا السيف في أهلها، وقتلوا منهم مالا يحصى عدده(٤) وخربوا دورهم ونبشوها فعثروا فيها على أموال عظيمة(٥) .

وتكرر الجرم الرهيب الذي سبق أن ارتكبه الخوارزميون من قبل في مدينة حلب وأعمالها فإنهم فعلوا في أهل منبج من الفضائع ما يصفه المؤرخ المعاصر ابن العديم بقوله: «وسبوا أولادهم ونساءهم، وجاهروا الله تعالى

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٢٨٢ – ٢٨٤ .

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٤٣، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٧٠ – ١٧١، عفاف صبرة : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٧٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٣،ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٦ .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة جـ١ ق٢ ص٤٦٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٦.

بالمعاصي في حرمهم، والتجأ لمة من النساء إلى المسجد الجامع، فدخلوا عليهن، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع، فيأخذه منها، ويضرب به الأرض، ويأخذها، ويمضي، ثم رجعوا إلى بلادهم»[١] في الجزيرة .

وفي الحقيقة ، قد يصعب تفسير تلك الوحشية التي عامل بها الخوارزميون الأهالي في حلب وغيرها من المدن الإسلامية في الجزيرة والشام، ويزيد من صعوبة هذا التفسير طبيعة الحياة العادية التي كان يعيشها الخوارزميون من قبل في موطنهم الأصلي في أقليم خوارزم قبيل الهجوم المغولي الذي قاده جنكيز خان وأبناؤه منذ حوالي عشرين عاماً،وهو زمن ليس ببعيد .

حقاً نال الخوارزميين كثير من الأذى على أيدي المغول الوثنيين في معظمهم آنذاك، وتمثل هذا في القتل والسلب واغتصاب النساء علناً، وتدمير الممتلكات وإحراق المزروعات وغير ذلك من أعمال الوحشية والإجرام،غير أن ذلك كله ليس كافياً لتبرير ما فعلوه هم أنفسهم في حق إخوانهم المسلمين فيما بعد، وبخاصة أن المنطقة كلها بما في ذلك إقطاعات الخوارزميين في حرّان والرها والرقة كانت لاتزال واقعة تحت طائلة تهديد المغول المنتشرين آنذاك في أقصى الشمال الغربي لإيران .

ولعله من الأرجح أن نرجع وحشية الخوارزميين الذين لم يكونوا وحدهم في هذا الأمر ، فقد اشتركت ضمن جموعهم نجدات من الأراتقة وبعض العرب (البدو) وبعض الأيوبيين – إلى الاعتبارات التالية :

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٣ ، أبو الفدا :المختصر جـ٣ ص١٦٨ ، ثيودور بيشوف : تحف الأنباء ص١١٧ .

أ – تقاعس الحكام المسلمين في الجزيرة والشام عن مناصرة السلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي (ت٦٢٨هـ) رغم تكرار استغاثاته بهم قبيل قدوم المغول للقضاء عليه كما سبق القول .

ب– حالة التمزق والتشرد التي كابدها الخوارزميون بعد مصرع سلطانهم جلال الدين في جبل الأكراد قرب مدينة ميافارقين، فقد تخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم(١) .

جـ– خشونة الخوارزميين أنفسهم وما جبلوا عليه من غلظة وجفاء، وهي طبيعة تعودوا عليها من قديم ، فلما لم يجدوا من بينهم سلطاناً قوياً – مثل جلال الدين منكبرتي – يكبح جماح هذا الطبيعة القاسية فيهم، أطلقوا لها العنان في ارتكاب تلك الأعمال الوحشية المدمرة .

د – طبيعة الحروب في ذلك العصر، إذ كان المنتصر يذيق المهزوم ألواناً من العذاب والذل ومن أمثلة ذلك ما حدث في سنة ٦٣٠هـ فقد هاجمت جيوش السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ مدينة حران والرقة وغيرهما من مدن الجزيرة، واشترك صاحب ماردين في هذا الهجوم، وفعلوا بالجزيرة مالا يفعله المغول(٢) وما حدث في سنة ٦٣٣هـ حين هاجم السلطان الكامل مدينة دنيسر الواقعة جنوبي ماردين فأخربها ما عدا الجامع وأقدم جنده على استباحة الفروج والأموال(٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ق٨ جـ٢ ص٦٧٧هـ الذهبي : العبر جـ٥ ص١١٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ق٨ جـ٢ ص٦٩٩، المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص٢٥١، ابن إبراهيم الحنبلي. شفاء القلوب ص٢٧١ .

التحرك الخوارزمي الخامس (حرّان - حماة)

سار الخوارزميون من حرّان في يوم الاثنين السادس عشر من رجب سنة ٦٣٨هـ وتتابعوا في الرحيل حتى وصلوا إلى ا لرقة وعبروا من جسرها نهر الفرات[١] ثم تحركوا غرباً في اتجاه شمالي حلب، فوصلوا إلى تل عزاز[٢].

ويبدو أن الخوارزميين كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى ارهاب قلعة حلب التي لم تقع تحت طائلتهم، وكذلك الضغط النفسي على الحلبيين حتى يسعوا في طلب الصلح معهم، فلما خاب مسعاهم في هذا الصدد اتجهوا جنوباً فوصلوا إلى سرمين وهي من أعمال حلب وفي جنوبها، فنهبوها، ودخلوا دار الدعوة الإسماعيلية بها، وكان فيها أمتعة كثيرة للناس ظناً منهم أن الخوارزميين لايجسرون على الاقتراب منها خوفاً من الإسماعيلية، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما فيها[٣].

وواصل الخوارزميون زحفهم جنوباً حتى وصلوا إلى معرة النعمان، ثم كفر طاب، فجفل منهم أهل البلدين، فنهبوا وأخربوا وأحرقوا كيفما شاءوا[٤] ثم توجهوا من هناك إلى مدينة شَيْزَر الواقعة شمالي حماة، فاعتصم أهلها بالربض الذي تحت قلعتها، فهاجم الخوارزميون الربض، ونهبوا ما أمكنهم نهبه[٥].

ولما بلغ الخوارزميون استعداد عسكر حلب للقائهم، وأنهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم حرّان، طلبوا ناحية حماة، ولم يتعرضوا لبلدها بنهب

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٦٥.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٩.

(٤) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٠، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٢.

ولافساد، لأن صاحبها منتمٍ إلى السلطان نجم الدين أيوب صاحب مصر، والخوارزميون منتمون إليه أيضاً، ومظهرون أن كل ما يفعلونه إنما هو خدمة له لمعاداة الحلبيين، وصاحب حمص، وصاحب دمشق له، ودخل بعض الخوارزميين إلى حماة، وتزودوا منها، وباعوا فيها، ثم رحلوا ، وتجاوزوها إلى سَلَميْة ثم إلى الرصافة طالبين الرقة(١) .

التصدي الأيوبي

لما وصل الخبر بكسرة عسكر حلب في الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ إلى الملك المنصور إبراهيم بن الملك الراحل أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكان نازلاً على شيزر – قبل الهجوم الخوارزمي عليها بمدة – وعازماً على الدخول إلى بلد الفرنج المجاور لها للغارة عليها، وعنده من عسكره، وعسكر دمشق ألف فارس، ترك الإغارة على الفرنج، وساق بمن معه من العسكر، ووصل إلى حلب، فنزل بظاهر ها يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ ملبياً بذلك استدعاء الحلبيين له(٢) .

وفي خطوة ثانية للتحرك الأيوبي في مواجهة تسلط الخوارزميين خرج من حلب المؤرخ المعاصر ابن العديم في سفارة من صاحبها توجهت إلى دمشق لتحليف صاحبها الملك الصالح إسماعيل بن العادل، فوصلت إلى دمشق في جمادي الآخرة من هذه السنة، وطلبت منه نجدة من عسكره زيادة على من كان منهم بحلب فسيّر نجدة أخرى(٣) .

وفي اتجاه عملي مؤثر تغير موقف العرب المقيمين حول حلب إذ انفصل

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٥، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧.

(٣) ابن لعديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٤، ابن واصل :مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨.

obeikandi.com

زعيمهم على بن حديثة عن الخوارزميين، وانضم إليه زعيم آخر هو طاهر بن غنام الذي قبل الخدمة بحلب، وكانت الملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب قد زوجت على بن حديثة بعض جواريها ، وأقطعته إقطاعاً يرضيه، ونال الإمارة على سائر العرب حول حلب، ومن ثمة انطلق العربان يناوشون الخوارزميين[١] عند التفافهم حول حلب قبل توجههم جنوباً إلى سرمين.

وأدى اكتمال صفوف الأيوبيين في حلب إلى تحرك جيشهم صوب الخوارزميين الذين كانوا قد تحركوا من سَلَمْية في اتجاه الرصافة، حيث وقع جمع من العرب عليهم هناك، وقد تعبت خيولهم، وضعفت لقوة السير، وقلة الزاد والعلف، فألقوا أثقالهم كلها، والغنائم التي كانت معهم من البلاد، وأطلقوا خلقاً ممن كانوا أسروه ببلد حلب، وشيزر، وكفر طاب، وساروا طالبين الرقة مجدين في السير، في حين اشتغل العرب، ومن كان معهم من الجند بنهب ما ألقوه[٢] .

وصل الخوارزميون إلى الفرات مقابل الرقة – غربي البليل وشماليه – بكرة الخميس الاثنين خامس شعبان سنة ٦٣٨هـ[٣] في الوقت الذي وصل فيه الملك المنصور وعسكر حلب إلى صفين، وساقوا سوقاً قوياً ليسبقوا الخوارزميين إلى الماء ويحولوا بينهم وبين العبور إلى الرقة، فوصلوا بعد وصول الخوارزميين بساعة، فوجدوا الخوارزميين قد اجتمعوا في بستان البليل وأخذوا منها الأبواب، وجعلوها ستائر عليهم، وحفروا خندقاً عليهم، فقاتلهم

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٤ – ص٢٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨ – ٢٨٩.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١؛ويذكر أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٧، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٥؛ ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣، أن ذلك كان في أواخر شهر شعبان وما ذكرته في المتن أوثق للمعاصرة.

obeikandi.com

العسكر الحلبي إلى بعد العشاء، وأخذ من الغنائم التي لهم شيئاً كثيراً، غير أن هذا العسكر الحلبي – أمام نقص الزاد والعلوفة للدواب – اضطر في الليل إلى العودة إلى منزلته السابقة في صفين[١] مخافة المباغتة من قبل الخوارزميين.

ونام جماعة من الرجالة الحلبيين في (البليل) فوقع عليهم الخوارزميون، فقتلوهم، ثم عبروا الفرات إلى الرقة، وقد هلكت دوابهم إلا القليل وأكثرهم رجالة، فسيروا إلى حرّان وأحضروا لهم دواباً ركبوها، وتوجهوا إلى حرّان[٢].

وأراد الملك المنصور العبور من «قلعة جعبر» فلم يمكنه لقلة العلوفة بها، فسار بالعساكر إلى «البيرة» وعبر بالعسكر والجموع[٣] وانضمّ إليه هناك نجدة من لدن سلطان سلاجقة الروم مكونة من ثلاثة آلاف فارس تم اختيارهم بأمر من هذا السلطان من «خرتبرت» و«ملطية» و«ابلستين» و«مرعش» المتاخمة لحدود الشام لمؤازرة الشاميين ومعاضدتهم وكان على رأس هذه النجدة القائد ظهير الدين منصور الترجمان، فلحقت بحلب في مدة لاتتجاوز ستة أيام، ومن ثم توجهوا إلى البيرة مصممين على قتال الخوارزمية[٤].

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١ وانظر عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٢ وهي تذكر أن الخوارزميين هم الذين تقهقروا إلى صفين، وهذا القول غير الذي ذكرته في المتن منقولاً عن نفس المصدرين.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٣) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٦٦.

(٤) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٤، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٨٣، ولكنها تقول «ومن الغريب أن غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم أرسل جيشاً لنجدة الأيوبيين» وليس هناك في تقديري ما يدعو للاستغراب للمصاهرة بين غياث الدين وصاحب حلب، الذي كان قد سك العملة باسم غياث الدين، وأرسل له جيشاً يعينه في حربه ضد المغول كما سبق القول، ويبدو أن الدكتورة عفاف قد نقلت هذا الرأى حرفياً عن الدكتور نافع توفيق العبود في كتابه «الدولة الخوارزمية» ص١٧٤ والذي ينسبة دون تمحيص إلى ابن العديم في كتابه زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٨.

وهكذا ازداد الجيش الحلبي قوة، فسار حتى نزل ما بين سروج والرها، فحاول الخوارزميون أن يكبسوا يزك (استطلاع) الحلبيين غير أنهم لم يفلحوا ليقظة الحلبيين الذين تحركوا صوبهم، فولى الخوارزميون بين أيديهم إلى سروج ثم إلى حرّان حيث أعادوا تجميع قواتهم، وضموا إليهم عوام حرّان والزموهم بالخروج معهم ليكثروا بهم سوادهم، فلما وصلوا إلى قرب «الرها» عند جبل يقال له «جلهمان» اجتمعوا عليه، ورتبوا عسكرهم وعملوا رايات من القصب وضعوها على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر الحلبي(١) .

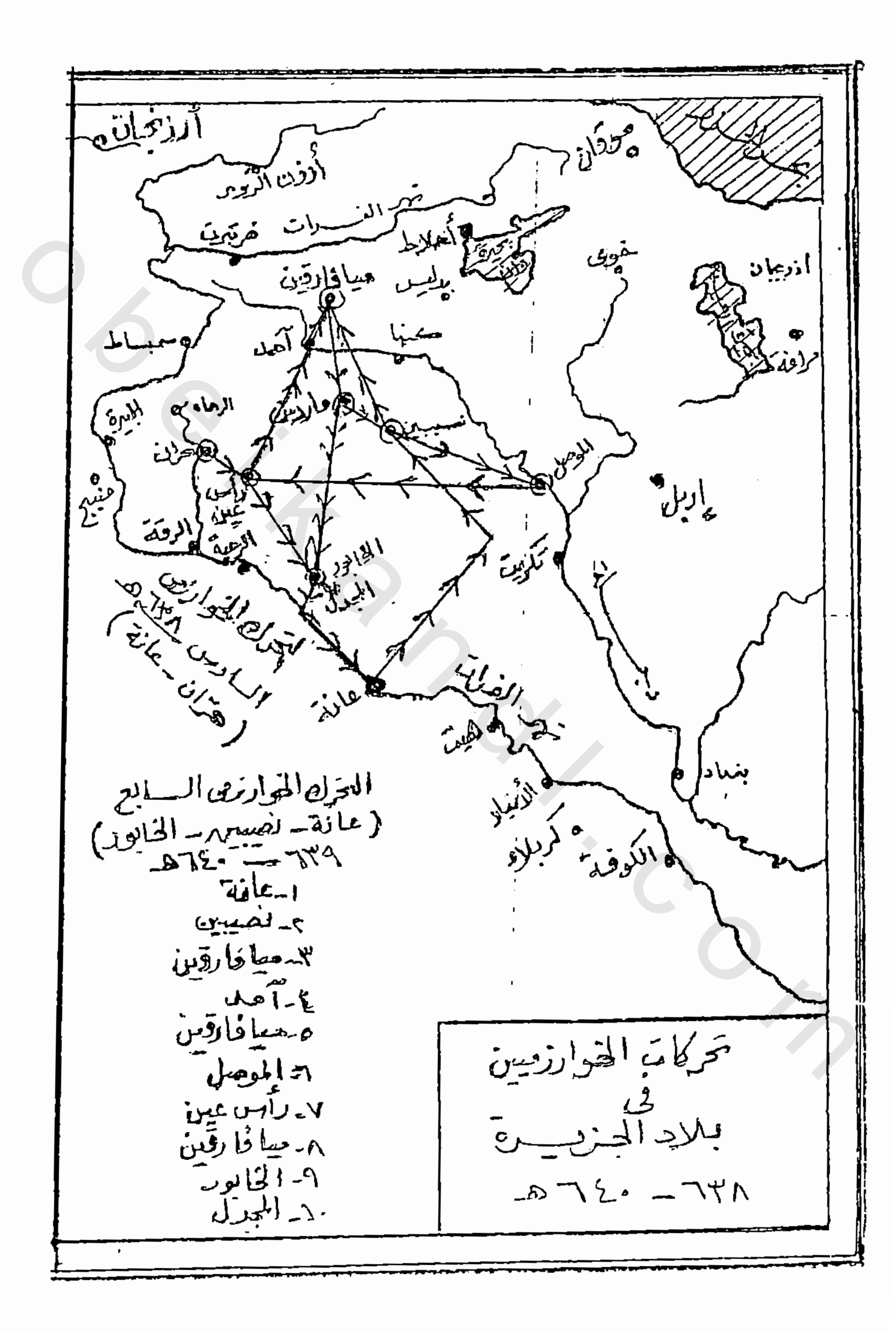
ومن ذلك يتضح مدى التغير الذي طرأ على الموقف العسكري، فقد أصبح الخوارزميون في وضع حرج لايحسدون عليه، وتحددت نتيجة المعركة القادمة سلفاً، ففي الحادي والعشرين من رمضان سنة ٦٣٨هـ، ولي الخوارزميون منهزمين،وركب الملك المنصور صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بين الطرفين(٢) .

ولم يعد أمام الخوارزميين سوى التقهقر ثانية صوب معقلهم الأخير في مدينة حران، وكان بركة خان زعيم الخوارزميين قد رتب بقلعتها شهاب الدين زندري الذي كان يعمل كاتباً بديوان الإنشاء لدى السلطان الخوارزمي الراحل جلال الدين منكبرتي، ليكون وزيراً له ونائباً عنه في قلعة حران فلما سمع شهاب الدين بانكسار بركة خان والخوارزميين عند الرها عزم على التوجه نحو بلاد سلطان سلاجقة الروم وتسليم القلعة إليه وكان الملك المنصورصاحب حمص قد بذل بدوره الوعود سراً لشهاب الدين زندري ومن

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧ ـ ٢٥٨، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٩٩، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩١.



obeikandl.com


obeikandl.com

معه لتسليم القلعة إليه(١) .

التحرك الخوارزمي السادس (حرّان - عانة)

أدرك بركة خان والخوارزميون مدى خطورة بقائهم داخل أسوار قلعة حران، ومن ثمة خرجوا عنها هاربين بنسائهم إلى الخابور(٢) ولم يكن بوسع القلعة أن تصمد عقب ذلك سوى بضعة أيام استسلمت بعدها للحلبيين، فأخرج من كان بها من الأسرى من أمراء حلب، وأقارب السلطان الملك الناصر(٣) .

أما الخوارزميون الذين ساروا مع زعيمهم بركة خان منهزمين من حرّان إلى الخابور فقد سار مسرعاً في أثرهم الملك المنصور، فاضطروا إلى إلقاءأثقالهم وبعض أولادهم، ونزلوا في طريقهم على الفرات، فجاءهم السيل في الليل، فأغرق منهم جمعاً كثيراً، فدخلوا إلى باب (عانة) واحتموا فيه لأنه بلد تابع للخليفة(٤) العباسي المستنصر بالله .

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٥ ، وتقول الدكتورة عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٣ «وعينوا عليهم بركة خان والياً من قبلهم» والمعنى أن الخوارزميين عندما تراجعوا إلى حرّان قد عينوا عليهم بركة خان والياً، وبمراجعة المصدرين اللذين رجعت إليهما الدكتورة عفاف وهما أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١٦٨ ،ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٨ وجدت أن الأول لم يذكر شيئاً عن هذا الموضوع وأن الثاني يقول «ورتبوا في قلعة حران والياً من جهة بركة خان» وبالرجوع إلى ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٣ وجدته يقول: «ورتب حسام الدين بركة خان والياً من قبله بقلعتها» ويتفق ذلك تماماً مع ما أثبته في المتن.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٤، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٤٤ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٩، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٤ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٩، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣، ثيودور بيشوف: تحف الأنباء ص١١٧ .

ويبدو أن الخوارزميين قد أرادوا أن يؤكدوا لخصومهم من الأيوبيين وحلفائهم أنهم قد صاروا في حماية الخليفة العباسي، وتحت رعايته، ومن ثمة فقد سار الأمير محمد تركان بن بركة خان زعيم الخوارزمية من عانة إلى بغداد، فخرج إليه موكب الديوان، وتلقاه شمس الدين محمد بن عبد الله حاجب باب المراتب في ظاهر السور، ودخل معه فقبل العتبة، ودخل دار الوزارة، فخلع عليه نصير الدين بن الناقد نائب الوزارة، وقُلِّدَ سيفاً، وأسكن داراً بدرب دينار الصغير، وكان عمره نحواً من عشر سنين، ووصل بعده ابن كشلوخان أحد أمراء الخوارزمية، واعتمد معه مثلما اعتمد مع المذكور(١).

وجدير بالذكر أن علاقة الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣ – ٦٤٠هـ) الذي كان يتحسب خطر المغول على بغداد وما حولها من أملاك الخلافة العباسية كانت طيبة مع الخوارزميين منذ أيام سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي (ت٦٢٨هـ) كما سبق القول، كما أن هذا الخليفة كان قد استخدم أربعة الآف فارس خوارزمي من الخوارزميين في سنة ٦٣١هـ كما تشير إلى ذلك بعض المصادر المعاصرة(٢).

وكان المغول بقيادة جورماغون قد حلوا مكان الخوارزميين منذ سنة ٦٢٨هـ في غربي إيران، ومن هناك تابعوا مهاجمة أملاك الخلافة العباسية في إربل ودقوقا وأعمال بغداد نفسها، وتمكنوا في ذي القعدة سنة ٦٣٥هـ من هزيمة جيش الخليفة العباسي المستنصر بالله عند جبل خانقين القريبة من شرقي بغداد، وقتلوا هناك عدداً كبيراً من المسلمين، ثم راسلوا الخليفة المستنصر بالله في ربيع الآخر سنة ٦٣٦هـ، فأنفذ إليهم رسولاً صحبة رسولهم فعاد إليه سنة

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٤٤؛ ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٥.

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٧٦، وانظر أيضاً : نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٦٨؛ عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٣.

٦٣٧هـ، وبلغ من شدة الضغط المغولي على العراق في هذه السنة أنه لم يحج أحد من هناك إلى الأراضي المقدسة[١] .

ومن هذا يتضح مدى صعوبة الموقف العسكري للخلافة العباسية آنذاك، وهو الأمر الذي جعل من احتماء الخوارزميين – بعد هزيمتهم سنة ٦٣٨هـ – بعانة التي اشتراها الخليفة العباسي سلفاً من الملك الجواد الأيوبي سنة ٦٣٧هـ وضعاً يتناسب مع طبيعة علاقتهم بهذا الخليفة، وتأكد ذلك من خلال مظاهر الاحتفاء بزيارة بعض أمرائهم لبغداد والذين اصطحبوا معهم جماعات من الخوارزميين[٢] .

نتائج الصراع الخوارزمي الأيوبي سنة ٦٣٨هـ

لم يكن الصراع الذي دار بين الخوارزميين من جهة وخصومهم من الأيوبيين في حلب وحمص ودمشق وحلفائهم من سلاجقة الروم والعربان أمرًا هيناً، فقد ألقى ظلالاً قاتمة من الضعف والانقسام على الشرق الأدنى الإسلامي في مرحلة حرجة كاد المغول خلالها أن يطبقوا عليه من ناحية الشرق والشمال الشرقي، وجثم فيها الصليبيون على معظم سواحله الغربية، وانتشرت في قلب ربوع الشام قلاع الإسماعيلية الثمانية ناشرة ألواناً من الهول بين العامة والحكام أنفسهم، وقد تمخض هذا الصراع الخوارزمي الأيوبي عن نتائج عديدة أهمها :

أ – فقدان الخوارزميين لكثير من إقطاعاتهم المهمة في بلاد الجزيرة، فقد استولى عسكر حلب على حرّان والرها وسروج ورأس عين والرقة، واستولى

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١١٣ – ١١٤، فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ١٨١.

(٢) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٥.

المنصور إبراهيم صاحب حمص على الخابور[١].

ب- بروز دور صاحب الموصل الأمير بدر الدين لؤلؤ في مناصرة الأيوبيين فقد بادر هذا الأمير إلى نصيبين ودارا (بلدة بين نصيبين وماردين) وكانتا للخوارزمية، فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان فيهم الملك المعظم تورانشاه بن الناصر صلاح الدين الكبير - وكان سجيناً بدارا - من حين أسرته الخوارزمية من كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين إلى الموصل، وقدم له مراكب ، وثياناً وتحفاً كثيرة، و بعث به إلى عسكر حلب[٢].

جـ- استيلاء عسكر سلاجقة الروم على مدينة «آمد» وكانت تحت حكم المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، وذلك أن أمراء الروم لم يرضهم ما أصابوه من الغنائم التي انتزعوها من الخوارزميين في حرّان والرها وغيرهما، فكتبوا إلى سلطانهم غياث الدين كيخسرو يطلبون مدداً ومعدات قتال لمحاصرة آمد، فأرسل إليهم ، ووافتهم نجدة من عسكر حلب غير أن ذلك لم يجد نفعاً أمام مناعة أسوار المدينة، فتم الاتفاق سراً مع الحراس على تسليمها مقابل مال جزيل، فسلموها للروم، فأخرجوا منها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتركوا له حصن كيفا، وقلعة الهيثم[٣].

د - ترويع الأهالي المسالمين في غربي الجزيرة وشمالي الشام،وتعريضهم لأسوأ حالات التعذيب والقتل والاغتصاب.

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٥، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٦،ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٣٥٧، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٦، ص٢٧٠، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٨٠، وهو ينقل عن سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٤ قوله: «إن الروم قد اشتروها أي آمد بثلاثين الف دينار».

obeikandi.com

هـ- تبديد الممتلكات الخاصة والمزارع ونهب المتاع والمواشي واستصفاء الأموال[١].

و – إهدار الطاقات العسكرية للمسلمين في وقت حرج كانوا في أمس الحاجة فيه لتوحيد صفوفهم في مواجهة العدوين الكبيرين المغول والصليبيين.

التحرك الخوارزمي السابع (عانة – نصيبين – الخابور)

أعاد الخوارزميون ترتيب أنفسهم في عانة من جديد، وشرعوا في الخروج منها في مطلع سنة ٦٣٩هـ، وساروا في اتجاه الموصل – وكانوا يدركون أن صاحبها لايقوى على الوقوف في وجوههم – فسارع بدر الدين لؤلو صاحب الموصل إلى مسالمتهم والاتفاق معهم، وسلمهم مدينة نصيبين لتكون لهم[٢].

وتدخلت الظروف السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي لتجعل من الخوارزميين من جديد قوة عسكرية مطلوبة، ذلك أن المغول كانوا قد أحكموا قبضتهم على غربي إيران كله، وامتد نفوذهم ليشمل أذربيجان وبلاد الكرج (أرمينية الكبرى) وأصبح غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم تابعاً لهم ومؤدياً إليهم الجزية، فامتد بصرهم تجاه إقليم الجزيرة الذي كان مرتعاً للصراع الدموي بين الأيوبيين وخصومهم الخوارزميين، فرأوا أن مفتاح السيطرة على هذا الإقليم يبدأ من مدينة ميافارقين لموقعها الجغرافي

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٥، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨١.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٤.

المتميز من جهة ، ولضعف دفاعاتها عن الصمود في وجوههم من جهة أخرى، ومن هذا المنطلق أرسل الخان الأعظم أوكتاي بن جنكيز خان (٦٢٦ : ٦٣٩هـ) رسولاً سنة ٦٣٨هـ إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين يقول له : « قد جعلتك سلاح دار، وأمرتك بتخريب أسوار بلادك جميعها، فقال شهاب الدين للرسول – وكان شيخاً لطيفاً مسلماً من أهل أصفهان كما يقول المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي – « أنا من جملة الملوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى بلاد الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم، فمهما فعلوا فعلته »[١] .

ولم يكن التهديد من قبل المغول هو الخطر الوحيد الذي يتهدد ميافارقين، فسلاجقة الروم الذين احتلوا مدينة آمد الواقعة على نهر الفرات جنوبي ميافارقين امتدت أطماعهم إليها، يقول المؤرخ ابن البيبي « ولأن سلاطين الروم قد اصطلحوا على أنهم طالما لم يصبحوا مالكين لميافارقين، ولم يغدوا قاهرين للطغاة المردة في تلك الديار، فلابد لمظلتهم أن تبقى مغلقة أبداً، ومن ثم دعا السلطان غياث الدين العساكر إلى قيصرية واستنجد بصاحب حلب وملوك الموصل وماردين والجزيرة، وكان الملك شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين قد علم بالأمر قبل ذلك فنهض لتداركه، فدعا إليه الخوارزميين الذين خلصوا إلى بغداد، ولاذوا بحمى المستنصر بالله، وكان زعيمهم ابن أخت السلطان جلال الدين قد انضمَّ إليهم قادماً من شيراز بقوات شرفية[٢] وانضمّ إلى هؤلاء بطبيعة الحال الخوارزميون الموجودون في نصيبين منذ مطلع هذا العام كما سبق القول.

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان حـ٨ ق٢ ص٧٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٨، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص٣٢٢ .

(٢) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٧٦، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦ .

وسير الملك المظفر شهاب الدين غازي إلى حلب وأعلم القائمين بالأمر فيها باتفاقه مع الخوارزميين، وطلب موافقته واليمين له على أنه إذا قصده سلطان سلاجقة الروم دافعوا عنه، فلم يوافقه الحلبيون على ذلك(١) .

وفي الحقيقة لم يكن بوسع الحلبيين أن ينضموا إلى التحالف بين الملك المظفر شهاب الدين صاحب ميافارقين والخوارزميين لأسباب عديدة منها :

١- سوء العلاقات بين الحلبيين والخوارزميين الذين ارتكبوا في حق المسلمين في حلب وما حولها من الجرائم ما لايمكن اغتفاره.

٢- سلبية صاحب ميافارقين رغم كونه شقيقاً للملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب في أثناء تعرضها للهجوم الخوارزمي في العام السابق.

٣- ارتباط الحلبيين بعلاقات وطيدة مع سلطان سلاجقة الروم نجمت عن التجاور المكاني، والمصاهرة ، وظهرت في سك العملة له والدعاء له في الخطبة، وتدعيم هذا السلطان لجيش حلب في صراعه القريب ضد الخوارزميين.

٤- الخوف من تصدع التحالف الأيوبي الذي كان يضم الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

أياً كان الأمر فقد تحرك الخوارزميون إلى ميافارقين وتجمعوا حولها(٢) وهناك اكتمل هذا التحالف بانضمام أتراك الكرميانية بعد أن نجح الملك المظفر شهاب الدين غازي في استدراجهم إليه بالمال والآمال، وأخيراً تم الاستعداد للقتال بتدعيم خندق ميافارقين وسورها وترتيب المجانيق والعرادات(٣) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٨٦، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٦.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٦، وتقول د. عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٨٥ «فلم يجد المظفر شهاب الدين غير الخوارزمية كقوة مرتزقة من الممكن أن تقدم له يد العون» والظاهر أنها لم تطلع على المصدر المعاصر للأحداث الذي رجعتُ إليه، وهو ابن البيبي (ت ٦٨٤هـ).

وتحرك الخوارزميون من ميافارقين صوب آمد لتخليصها من أيدي سلاجقة الروم أعدائهم القدامي، فخرج عسكر حلب بقيادة المعظم فخر الدين تورانشاه بن السلطان الكبير صلاح الدين، فوصل إلى حرّان في صفر سنة ٦٣٩هـ، ثم نجح الحلبيون في دفع الخوارزميين عن مدينة آمد فارتدوا إلى مدينة ميافارقين حيث اعتصموا بحاضرها خارج البلد(١).

ويصف المؤرخ ابن البيبي المعركة التي وقعت خارج أسوار ميافارقين فيقول: «فلما بلغ سلاجقة الروم وجند الشام ميافارقين نزلوا حولها، وكانت المناوشات تقع بين الطرفين، وهطلت أمطار غزيرة، فأغرق السيل خيام جند الروم والشام، وأخذوا يتساقطون في الأوحال، وكان الخوارزميون في الجهة اليمنى، فأزاحوا الجهة اليسرى من عساكر الروم، وكانت من ولاية دانشمند، وألجأوهم إلى الخيام، وبسبب الصدمة التي ألحقها جند الموصل وملطية وكانوا يمثلون ميمنة جيش السلطان (غياث الدين كيخسرو) تراجع الأتراك الكرميانية (في جيش ميافارقين) حتى حافة الخندق فجرت الدماء سيولاً بدل الماء»(٢).

ولم يطل تعرض مدينة ميافارقين بعد المعركة السابقة للحصار - رغم تعرض رستاقها للإغارة وبلدها للنهب - من قبل جيش سلاجقة الروم وحلفائهم من الشام والموصل وماردين(٣) فقد تدخلت عوامل عديدة لرفع هذا الحصار وكان من أهمها:

١- إرسال المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين إلى المحاصرين

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٩.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٧، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٠.

رسولاً من قبله يدعوهم إلى نبذ الخصام، ويحضهم على اتباع السلام، ويذكرهم بالصلات الطيبة بين السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ (ت/٦٣٤هـ) وشقيقه الملك الأشرف بن العادل الأيوبي (ت/٦٣٥هـ)[١].

٢- ورود الأوامر من قبل الخليفة العباسي المستنصر بالله لهؤلاء المحاصرين بأن ينتهوا عن المحاربة والمحاصرة[٢] وكانت الخلافة العباسية آنذاك تعاني من تواتر الضغط المغولي على أطراف ممتلكاتها القريبة من بغداد.

٣- إصابة الأمراء المحاصرين بالملل من جراء طول الحصار وشدة انهمار المطر، وكثرة الأوحال التي كانت تعوق حركة الجند وأدوات الحصار .

٤- رغبة الحلبيين في تخفيف الضغط عن المظفر شهاب الدين غازى لكونه أخا لمولاتهم ضيفة خاتون ابنة العادل الوصية على عرش حلب[٣] .

وخرج قاضي ميافارقين إلى المحاصرين يفاوضهم على المهادنة ويأخذ منهم القسم على الالتزام بالصلح الذي نص على الآتي :

١- أن يقطع سلطان سلاجقة الروم الخوارزمية ما كان إقطاعاً لهم من قبل في بلاده، على أن يكونوا مقيمين في أطرافها.

٢- أن تُعطى الملكة ضيفة خاتون بحلب أخاها الملك المظفر شهاب الدين غازي ما تختاره هي من غير اشتراط عليها.

٣- أن يكون الحلبيون والمظفر شهاب الدين سلماً لمن هو داخل في هدنتهم[٤].

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٧٨.

(٢) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٥ - ٣٠٦.

وبالنظر إلى بنود هذاالصلح يتضح استحالة تنفيذها، فالخوارزميون لن يوافقوا على العودة إلى سلطان سلاجقة الروم بعدما وقع عليهم الكثير من الأذى على أيدي رجاله منذ توليه العرش في سنة ٦٣٤هـ،وبعد أن أصبحوا الآن قوة عسكرية مؤثرة في بلاد الجزيرة على وجه الخصوص، كذلك لم يكن الحلبيون مقتنعين في الحقيقة بإقطاع أي شيء يملكونه في شمالي الشام أو الجزيرة لصاحب ميافارقين المحاصر فيها رغم ما يربطه بهم من صلات القربى، بسبب تحالفه مع أعدائهم الخوارزميين الذين لايمكن قبول الهدنة معهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد دخلت رسل الملك المعظم تورانشاه بن الناصر صلاح الدين ومعهم بعض أمراء سلاجقة الروم إلى مدينة ميافارقين ، فأخذوا القسم على إجراء المهادنة وإتمام الصلح من صاحبها، وفي اليوم التالي ارتحل جيش الحصار جنوباً عائداً إلي آمد، وهناك أقيمت حفلة ملكية على شرف الملك المعظم تورانشاه، ثم افترقوا من الغداة حيث اتجه هو بجيش حلب إلى الشام، وتوجه جيش سلاجقة الروم إلى ملطية[١] .

أما الخوارزميون فقد استفادوا عملياً من هذا الصلح الذي لم ينتظم من أمره شيء، إذ اطلق الحلبيون لهم أسرى الحرب الذين كانوا محتجزين في مدينة حلب[٢] من العام الماضي.

واضطر صاحب مأردين الملك السعيد نجم الدين غازي بن الملك المنصور -وكان قد سبق له حلف يمين الولاء لصاحب حلب الملك الناصر - إلى موافقة الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وحلفائه الخوارزميين[٣]

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٩.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان حـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٣٠٠- ٣٠١.

فتحركوا جميعاً إلى الموصل ، فنهبوا رستاقها واستاقوا مواشيها(١) .

ويرجع السبب في مهاجمة مدينة الموصل إلى إقدام صاحبها على التحالف مع جيش سلاجقة الروم والحلبيين واشتراك فرق من جيشه في الدفاع عن مدينة آمد ضد الخوارزميين، ثم في حصار مدينة ميافارقين كما سبق القول، فكان الهجوم على مدينته إظهاراً للرغبة في الانتقام منه، وتهديداً وزجراً له عن المشاركة في أعمال أخرى مشابهة.

ويبدو أن التوفيق الذي صادفه جيش التحالف عند مدينة الموصل قد أغرى عناصره الثلاثة : الخوارزميين وصاحب ميافارقين وصاحب ماردين بالإقدام على فكرة الانتقام من جيش حلب(٢) ومن ثمة اجتمع لدى هذا التحالف عشرون الف فارس، وانضاف إليهم جمع عظيم من التركمان، يقدمهم أمير يقال له ابن دودي(٣) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل :مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٠ . وينبغي التوقف هنا عند نص ورد لدى المؤرخ أبي الفدا في كتابه المختصر جـ٣ ص١٦٩ فهو يقول عن أحداث سنة ٦٣٩هـ «وفي هذه السنة اتقعت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل» وقد نقل عنه هذا النص مؤرخون عدة منهم ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٦، ثيودور بيشوف: تحف الأنباء ص١٧، وانظر أيضاً المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١١، فهو يقول: «وأوقع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين بالخوارزمية»..! ويكمن الخطأ هنا في كلمة (اتقعت) وصحتها في تقديري (اتفقت) وهذا ينقل النص بأكمله إلى العكس أي إلى الصواب، ولعله خطأ في الإملاء وقع فيه الناسخ، إذ إن ما أورده أبو الفدا نفسه من أحداث تالية عن العلاقة بين الخوارزميين وصاحب ميافارقين يتفق مع هذا التصحيح .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٢ .

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٥١، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٨٤، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص١٧٩، ويذكر ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠، «وكان مع الملك المنصور التركمان ومقدمهم يسمى ابن دودا» والصواب أن =

وتحرك الملك المظفر شهاب الدين غازي والخوارزمية فوصل إلى رأس عين، فتحصن أهلها بها مع العسكر الذي كان بها، فأمنت الخوارزمية أهلها، ودخلوها وأخذوا من كان بها من العسكر، وفي المقابل تحرك عسكر حلب تحت قيادة الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص – وكان قد ورد اتفاقاً إلى حلب – فعبر نهر الفرات إلى حرّان ، فعاد الملك المظفر شهاب الدين غازي والخوارزمية إلى ميافارقين وأطلقوا من كان في صحبتهم من العسكر الذين أخذوهم من رأس عين[١] .

ورأى الملك المنصور إبراهيم – بعد رحيل خصومه عن رأس عين – أن يتوجه مع عسكره إلى آمد، حيث اجتمع بمن كان بها من عسكر سلاجقة الروم، وأقاموا ينتظرون وصول العساكر مع دهليز السلطان غياث الدين كيخسروا لمنازلة ميافارقين[٢] .

ولم يتح ظهور المغول بقوة في شرقي دولة سلاجقة الروم الفرصة لوصول الإمدادات المتوقعة إلى مدينة آمد، فقد امتدت إغارات المغول حتى حصن زياد « خرتبرت » ونهبوا كل ما وجدوه[٣] وأشاعوا الهلع في المناطق المجاورة[٤] .

ولم يملك الملك المنصور إبراهيم انطلاقاً من الاستراتيجية التي انتهجها أسلافه الأيوبيون والتي تمثلت في تحاشي المواجهة العسكرية مع المغول إلا أن

= التركمان كانوا في جيش الخوارزميين وصاحب ميافارقين وصاحب ماردين،ولم يكونوا في جيش الملك المنصور إبراهيم الذي كان يقود جيش حلب » كما ورد في المتن.

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٢، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٣ – ٢٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٠١

(٤) العريني : المغول ص ١٨٣، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨٢ .

obeikandi.com

يسحب العسكر الحلبي الذي كان معه في آمد ويعود به إلى رأس عين(١).

ولم يكن موقف الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين القريبة من خرتبرت التي احتواها المغول منذ قليل ليختلف كثيراً عن موقف خصمه الملك المنصور الأيوبي تجاه هؤلاء المغول، فبدلاً من الاستعداد لمواجهتهم أو التحالف مع قوى إسلامية أخرى ضدهم، بادر الملك المظفر شهاب الدين فجمع أمراء الخوارزمية - وكان قد وافقهم صاحب ماردين - وشاورهم في الأمر، ولما كان هؤلاء بدورهم عازفين عن الدخول في أي مواجهة مع المغول، فقد قالوا للملك المظفر لابد من لقاء العسكر الحلبي، فقال المصلحة أن نمضي ونخرب بلد الموصل، فلم يلتفتوا إليه، فالجأته الضرورة إلى موافقتهم، فلما كان الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٤٠هـ تحركوا من جبل ماردين إلى دُنيسر الواقعة جنوبيها، وكانت تابعة للملك السعيد صاحب ماردين، ومن هناك وصلوا جنوباً إلى الخابور ثم ساقوا إلى المجدل(٢).

ولما علم الملك المنصور إبراهيم بذلك تحرك على رأس جيش حلب من رأس

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٠١.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٠، وتقول د. عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، «وتشجع الخوارزمية والملك المظفر فأغاروا على دُنَيسر وهي تابعة لصاحب ماردين» على حين يقول عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ١٩٢، «ولكن قيام الخوارزمية بالتحالف مع صاحب ماردين عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م أدى إلى قيام الحروب والاضطرابات في المنطقة من جديد، وقد انضم شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين إلى هذا التحالف، وقاموا بتخريب مناطق عديدة في الجزيرة، فتقدمت قوات حلب لقتالهم» وأميل إلى تأييد الرأى الثاني لأنه يتفق مع طبيعة الأحداث التي سبق إيرادها في المتن سلفاً، كما أن المصدرين اللذين اعتمدت عليهما د. عفاف صبره وهما ابن العديم في كتابه زبدة الحلب، وابن واصل في كتابه مفرج الكروب لم يشيرا إلى تحرك الملك المظفر غازي والخوارزميين إلى دنيسر على أنه إغارة ترتب عليها أعمال نهب وسلب وقتل كما درج الخوارزميون على مثل ذلك في مواقف أخرى مشابهة، وإنما اكتفيا بالقول إن دنيسر كانت تابعة آنذاك لصاحب ماردين.

عين، وتوجه من هناك إلى المجدل[١] فاصطف الخوارزميون ميمنة وميسرة، والملك المظفر شهاب الدين غازي في القلب، واقتتلوا فصدمهم عسكر حلب صدمة رجل واحد[٢] فكانت الهزيمة على الملك المظفر والخوارزميين والتركمان وذلك في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر سنة ٦٤٠هـ[٣].

وقد أسفرت المعركة السابقة عن نتائج مهمة منها :

أولاً : فرار صاحب ميافارقين الملك المظفر شهاب الدين غازي، ووقوع أثقاله وغالب عسكره في قبضة عسكر حلب، ونزول خصمه الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص في خيمته واحتواؤه على خزائنه[٤].

ثانياً : هزيمة الخوارزميين، ونهب أموالهم وخيامهم ، ووقوع نسائهم مع مالديهن من الأموال والحلي والذهب في أسر عسكر حلب، حتى إنه لم يفلت منهن واحدة[٥].

ثالثاً : تبديد شمل التركمان وانتهاب عسكر حلب خيلهم وأغنامهم ونساءهم وكانوا خلقاً عظيماً[٦].

وهكذا غنم العسكر الحلبي من الخيل والبغال والجمال والأغنام والآلات

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠.
(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.
(٣) الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠،ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٧.
(٤) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٠، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٧، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٨٤.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١، ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٥١، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧.
(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.

obeikandl.com

مالا يحصى[١] حتى بيع الفرس بخمسة دراهم، ورأس الغنم بدرهم[٢] .

وعقب انتهاء المعركة عاد الملك المنصور والعسكر الحلبي فوصلوا إلى حلب في يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى مؤيدين منصورين[٣] فضربت البشائر بحلب وزينت أياماً سبعة[٤] .

أما الملك المظفرغازي فقد عاد إلى مدينة ميافارقين، وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نصيبين، ثم رحلوا فنزلوا رأس عين، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء، وفعلوا بالخابور كذلك، بل إنهم نهبوا أغنام التركمان[٥] الذين كانوا من حلفائهم بالأمس القريب!! ولعل الدافع وراءذلك شدة حاجة الخوارزميين إلى تعويض خسائرهم أمام عسكر حلب عند المجدل، وما جبلوا عليه من غلظة وجفاء.

ويبدو أن هذا العبث الذي أثاره الخوارزميون في بلاد الجزيرة[٦] قد أثار غضب القائمين على الأمر في مدينة حلب بعد وفاة الملكة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل في الحادى عشر من جمادي الأولى سنة ٦٤٠هـ، واستواء حفيدها الصغير الملك الناصر على العرش مستقلاً عقب ذلك، فخرج عسكر حلب في جمادي الآخرة من هذه السنة ومقدمهم الأمير جمال الدولة إقبال الخاتوني فسار وخيم في رأس عين متأهباً لملاقاة الخوارزميين[٧] الذين كانوا قد انضموا إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وانضووا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١١.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١
(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧١، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١١.
(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.
(٦) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٢، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٢.
(٧) المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١١، نافع العمود: الدولة الخوارزمية ص١٧٩.

جميعاً إلى الملك السعيد نجم الدين غازي صاحب ماردين، واحتموا بجبلها، فوصل إليهم عسكر حلب، ونزل في مقابلتهم تحت الجبل، وخندقوا حولهم وجرت بين الطرفين مناوشات، ووضح على عسكر حلب التضرر لقلة العلوفة(١).

وفي تلك الأثناء كان الضغط المغولي قد توالي على الشرق الإسلامي، ذلك أن القائدالمغولي الجديد «بايجو» نوين الذي حلَّ مكان القائد السابق جورماغون الذي عزل عن القيادة المغولية في غربي إيران منذ سنة ٦٣٩هـ نتيجة أصابته بالشلل. قد رأى أن يثبت جدارته أمام تواركيناخاتون زوجة الخاقان الأعظم المغولى أوكتاى الذي توفى سنة ٦٣٩هـ(٢)، فأصبحت تلك الأميرة وصية على العرش الخاقاني إلى حين اجتماع القوريلتاي المغولى لاختيار خاقان أعظم جديد(٣).

ومن ثمة تحركت القوات المغولية في اتجاهين الأول نحو ممتلكات الخلافة العباسية فجرى الهجوم على مدينة أربيل ثم منطقة دقوقا وأعمال بغداد حيث أعمل المغول القتل والنهب وأخذوا السبايا(٤) والثاني نحو ممتلكات سلاجقة الروم حيث جرى الاستيلاء على مدينة أرزن الروم(٥) وكان هذا كله يعنى تهديد شمالي بلاد الجزيرة والشام.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٤، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥١.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢٨٠، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص١٨٢.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٩٠، بارتولد: تركستان من الفتح إلى الغزو المغولي ص٦٧١، القزاز الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص٥٥.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ أبناءجنكيز خان) ص١٩١ - ١٩٢.

(٥) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٨٠ - ٢٨١، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٣٦، السيد العريني: المغول ص ١٨٣.

وقد فرضت تلك الأحداث نفسها على الصراع بين الحلبيين وخصومهم من الخوارزميين ومن يؤيدهم، فورد الأمير شمس الدين الأصبهاني النائب بالمملكة الرومية في أمر الصلح بين الطرفين[١] وعرض الاتفاق على الاعتبارات الثلاثة التالية :

١- يُعطى صاحب ماردين رأس عين (وهي في الجنوب الغربي من بلاده).

٢- يُعطى صاحب ميافارقين مدينة أخلاط وأعمالها[٢] (وهي في شرقي بلاده).

٣- يُعطى الخوارزميون خرتبرت الواقعة على نهر الفرات شمالي ميافارقين ومعها شيء من البلاد، فلم يتم للخوارزمية والملك المظفر شهاب الدين غازى ما أرضوا به بسبب الخوف من مباغتة المغول لهم، وحصل الملك السعيد صاحب ماردين على رأس عين، وعاد العسكر الحلبي إلى حلب وبرفقته الأمير شمس الدين الأصبهاني الذي أخذ عسكراً من حلب لنجدة سلاجقة الروم في مواجهة المغول[٣].

وهكذا رأينا كيف انهكت الصراعات الداخلية فى الشرق الأدنى الإسلامي قوى المسلمين من سلاجقة الروم والأيوبيين والخوارزميين والأراتقة، وأضعفت قوتهم جميعاً فأصبحت بلادهم مفتوحة على مصراعيها أمام الغزو المغولي الذي كان يسعى للاستيلاء على ثروات هذه البلاد، واتخاذها قاعدة ارتكاز لتدعيم انطلاقه صوب شرقى أوربا.

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٧، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥١.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري :نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٢٦ - ٦٣٧، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص١٨٠.

التحرك الخوارزمي الثامن (نصيبين - غزة) سنة ٦٤١هـ

تكررت المراسلة في الصلح بين الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر، وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص واتفق على :

أ- أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وأن يظل كل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه.

ب- أن تكون الخطبة والسكة في جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب.

جـ- أن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال بقلعة دمشق، وأن يُخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبي على الهذباني من اعتقاله ببعلبك.

ء - أن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود.

فخطب لنجم الدين بجامع دمشق وبحمص وأفرج عن المغيث داخل مدينة دمشق إلى حين ، وأفرج عن حسام الدين وتمَّ استقباله في دمشق، فسار إلى مصر ومعه رسل دمشق وحمص وحلب فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، فلم يقع اتفاق وعادت الفتنة بين الملوك(١) .

ويرى المؤرخ المعاصر ابن واصل أن سبب انتقاض الصلح بين الطرفين يتضح فيما حكاه له جلال الدين الخلاطي حين قال: «كنتُ بمصر رسولاً من جهة مخدومي الملك الصالح إسماعيل، وقد تقررت القواعد، ولم يبق إلا الأيمان، فورد عليّ كتاب من مخدومي الملك الصالح وفي طيه كتاب من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزميين يحثهم على الحركة، ويذكر لهم أنه إنما أظهر الصلح مع عمه ليخلص ابنه المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوة عمه،

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٢، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٤٦ - ٣٤٧.

obeikandi.com

ولابد من قصده، وأخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب وأوقفته على هذا الكتاب، وما أبدى في جواب ذلك عذراً يسوغ قبوله»(١) .

وقد ترتب على عدم انتظام الصلح بين الطرفين: الصالح نجم الدين أيوب وحليفه الملك المظفر صاحب حماة من جهة والملوك الأيوبيين في الشام من جهة أخرى نتائج مهمة منها :

أ – منع الصالح إسماعيل الملك المغيث عمر بن نجم الدين من الركوب داخل دمشق، وكان محتجزاً في قلعتها، فأمر بإعادة حبسه في برج القلعة(٢) .

ب – قطع الخطبة باسم السلطان نجم الدين أيوب في يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٤١هـ في مدينة دمشق ثم في حمص وحلب(٣) .

جـ – عودة التقارب بين الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق الذي كان قد أرسل عسكرًا إلى عجلون لحصار الناصر، فرده واتفق مع الناصر على عداوة نجم الدين(٤) .

د – التسابق المذموم بين الطرفين على كسب ود الصليبيين في الشام، فقد اقترح الصالح إسماعيل بموافقة الناصر داود على هؤلاء الصليبيين أن يجلوا من ساحة المعبد شيوخ المسلمين الذين كفل لهم الإمبراطور فردريك الثاني البقاء بها. وسارع الصالح نجم الدين فبذل للصليبيين نفس العرض، وتأكد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣١، وانظر أيضاً. ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٣٦.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤١، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٣.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٣، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢.

(٤) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٤، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٣٦.

بذلك نجاح الداوية الذين تولوا أمر المفاوضات في الإيقاع بين الحكام المسلمين إذ استطاعوا أن يحصلوا منهم جميعاً على الموافقة بإعادة ساحة المعبد إلى العقيدة المسيحية، وكتب أروان بر يجورد رسالة مثيرة إلى أوربا في نهاية سنة ١٢٤٣م/ رجب سنة ٦٤١هـ، يقص فيها ما جرى التوصل إليه من نتيجة سعيدة، ويعلن أن طائفة الاسبتارية تعكف منذئذ على إعادة تحصين المدينة المقدسة[١] .

هـ- فتح الباب على مصراعيه أمام الغارات المغولية على شمالي الجزيرة والشام[٢] . وكان المغول قد استولوا على إقليم موقان ومايليه غرباً في اتجاه أرزن الروم ، وأخذوا يضغطون بقوة على شمالى الجزيرة والشام.

أما الخوارزميون فإنهم كانوا قدعادوا من جبل ماردين إلى نصيبين، فأقاموا بها، وأصبحت ملك أيديهم، وشرعوا يظهرون طاعة السلطان الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر، وقد مرت بهم سفارة الملك المظفر صاحب حماة وحليف الصالح نجم الدين أيوب وكانت في طريقها إلى بغداد لتهنئة الخليفة العباسي المستعصم بالله بالخلافة وتعزيته في وفاة أبيه الخليفة المستنصر، وكان ضمن هذه السفارة المؤرخ المعاصر ابن واصل، فلما أدت السفارة مهمتها قفلت راجعة فمرت بنصيبين، واجتمعت هناك بالأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي، وجرى الحديث معه في معنى القيام بنصرة السلطان الملك الصالح نجم الدين، والمضى بالخوارزميين إلى خدمته ومعاضدته على أعدائه، فوعد بركة خان بذلك[٣] .

وبرز الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة، ونزل بظاهرها عند بركة

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٨٩ - ٣٩٠، هانس ابرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٠.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٣٣.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٢٣-٣٢٥.

الجب، وكتب إلى الخوارزميين يستدعيهم إلى ديار مصر لمحاربة الشاميين[١].

وفي المقابل سارع التحالف الشامي بالاتفاق على محاربة الملك الصالح نجم الدين ومباينته بعد أن علموا مكاتبته إلى الخوارزميين، فصالحوا الصليبيين، واتفقوا معهم - بالإضافة إلى ما سبق - على تسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها، فتسلم الفرنج ذلك كله، وعمروا قلعتي طبرية وحصنوهما، وأخذ الفرسان الاسبتارية كوكب وعزموا على عمارتها[٢].

وقد زار المؤرخ المعاصر ابن واصل القدس وهو في طريقه إلى مصر. فقال: «وسافرتُ في أواخر سنة ٦٤١هـ إلى الديار المصرية، ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى، وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الآذان والإقامة، وأعلن فيه بالكفر»[٣].

وفي أوائل سنة ٦٤٢هـ تجمع الخوارزميون تحت أمرة مقدميهم وهم يومئذ أربعة خانات: حسام الدين بركة خان، وزين الدين خان بردي، وعز الدين صاروخان، وبهاء الدين كشلوخان، وكانوا يزيدون على عشرة الآف فارس، وانضم إليهم أيضاً جماعة من الأمراء القيمرية (نسبة إلى قلعة قيمر بين الموصل وأخلاط) منهم الأمير ناصر الدين وضياء الدين وجماعة كثيرة من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٧٢، ابن الوردي: تتمه المختصر جـ٢ ص٢٤٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٢، ٣٣٣، وقد نقل هذه الرواية عنه ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ص٢٤٦.

obeikandi.com

أصحابهم وأتباعهم[١] .

وتوجه كل هؤلاء من نصيبين إلى نهر الفرات فاجتازوه من عند جسر الرقة كعادتهم، ثم انقسموا قسمين: سار أولهما إلى حمص ثم إلى بقاع بعلبك، وسار ثانيهما حتى وصل إلى غوطة دمشق، وهم ينهبون ويأسرون ويقتلون، فانجفل الناس من بين أيديهم ، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضمْ عساكره إليه بعدما كانت قد وصلت إلى غزة[٢] متأهبة للمشاركة في غزو مصر.

ولما كانت دمشق من القوة بما جعلهم عاجزين عن اقتحامها، فقد مضى الخوارزميون في سيرهم إلى الجليل، بعد أن تجاوزوا طبرية التي استولوا عليها، ثم اتجهوا صوب الجنوب نحو بيت المقدس بعد أن اجتازوا نابلس[٣] .

ثالثاً : الصليبيون وسقوط القدس سنة ٦٤٢هـ

بلغ الخوف من بأس الخوارزميين وقسوتهم مبلغه حتى إن الناصر داود سارع بالعودة إلى الكرك فاعتصم به، على حين بادر عدد كبير من الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه بالهرب إلى عكا[٤] .

يصف بعض المؤرخين المحدثين أحوال مدينة القدس قبل الهجوم

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣، الذهبي : العبر جـ٥ ص١٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣ ٣، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٠.

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩١ ــ ٣٩٢، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٤٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٣، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣.

obeikandl.com

أصحابهم وأتباعهم(١).

وتوجه كل هؤلاء من نصيبين إلى نهر الفرات فاجتازوه من عند جسر الرقة كعادتهم، ثم انقسموا قسمين: سار أولهما إلى حمص ثم إلى بقاع بعلبك، وسار ثانيهما حتى وصل إلى غوطة دمشق، وهم ينهبون ويأسرون ويقتلون، فانجفل الناس من بين أيديهم، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضمْ عساكره إليه بعدما كانت قد وصلت إلى غزة(٢) متأهبة للمشاركة في غزو مصر.

ولما كانت دمشق من القوة بما جعلهم عاجزين عن اقتحامها، فقد مضى الخوارزميون في سيرهم إلى الجليل، بعد أن تجاوزوا طبرية التي استولوا عليها، ثم اتجهوا صوب الجنوب نحو بيت المقدس بعد أن اجتازوا نابلس(٣).

ثالثاً: الصليبيون وسقوط القدس سنة ٦٤٢هـ

بلغ الخوف من بأس الخوارزميين وقسوتهم مبلغه حتى إن الناصر داود سارع بالعودة إلى الكرك فاعتصم به، على حين بادر عدد كبير من الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه بالهرب إلى عكا(٤).

يصف بعض المؤرخين المحدثين أحوال مدينة القدس قبل الهجوم

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٢، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٣، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٠.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩١ - ٣٩٢، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٤٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٣، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣.

obeikandl.com


obeikandl.com

الخوارزمي عليها على النحو التالي: «وكانت بيت المقدس عندئذٍ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، ليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمير أنطاكية وطرابلس بوهيموند الخامس، وملك قبرص هنري الأول فضلاً عن الصليبيين في عكا وحلفائهم ملوك حمص ودمشق والأردن، ولكن أحداً من هذه الأطراف لم يلب النداء، إذ كان الصليبيون في الشام وقبرص في شغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم، في حين كان ملكا دمشق وحمص - وهم من حلفاء الصليبيين - لا يجسران على التدخل في ذلك الموقف لحماية مصالح الصليبيين في بيت المقدس مما يعرضهما لنقمة الرأى العام في البلدان الإسلامية»[١].

وقد يقبل المرء من هذا الرأى القول بأن بوهميند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس وكذلك هنري الأول ملك قبرص كانا مشغولين بمشاكلهما الخاصة، أما الصليبيون في عكا فقد سبق الإشارة إلى مدى سعادتهم الغامرة في الرسالة التي كتبها مقدم الداوية إلى أوربا في أواخر سنة ١٢٤٣م بتحقيق النجاح من خلال المفاوضات في الإيقاع بحكام المسلمين في مصر والشام حتى إنهم نالوا عرضاً واحداً في نفس الوقت من خصمين لدودين هما الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، والصالح إسماعيل صاحب دمشق بتسليم المزارات الإسلامية في الحرم الشريف للصليبيين كما سبق القول، وعليه فلم يكن الصليبيون في عكا بمنأىً عما يجرى في القدس، وقد قام كل من الداوية والاسبتارية على إعادة تحصين المدينة المقدسة[٢] في الفترة ما بين أواخر سنة ١٢٤٣م إلى الحادي عشر من يوليه سنة ١٢٤٤م وهي مدة تزيد

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٥ نقلاً عن
Richard : le Rayaume latin de jerusalem P 260 (paris - 1953)
وقد نقلت عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٩١ عن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بالنص دون تدخل.

(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٠، ٣٩٢.

على ستة أشهر أي أنبا مدة كافية لإعادة تحصين المدينة وبناء استحكاماتها.

ويبدو أن المشكلة الحقيقية التي واجهت الصليبيين في عكا والقدس قد كمنت في عنصر المفاجأة السريعة من قبل الخوارزميين إذ لم يكن أحد يتوقع أن يباغتوا القدس، لأنهم دأبوا على إظهار طاعتهم للصالح نجم الدين الذي كان قد بذل بدوره للصليبيين تسليمهم الحيز المخصص للمسلمين في القدس[١] مقابل عدم انضمامهم إلى خصومه من الشاميين وعلى رأسهم عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

ويؤكد ذلك أن المهمة الأولى التي كلف الصالح نجم الدين أيوب أتباعه الخوارزميين بها إنما كانت تتركز في محاصرة دمشق[٢] فلما تحركوا فعلاً من الشرق صوب دمشق، سارع الصالح إسماعيل إلى استدعاء عسكره من غزة، وإحكام سد أبواب دمشق في وجه الخوارزميين كما سبق القول، فاندفع هؤلاء بقوة إلى بيت المقدس فباغتوا من كان بها من الصليبيين.

أما القول بأن مدينة القدس كانت بلا ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها فإنه لايتفق مع الواقع التاريخي «إذ إن حاكم المدينة الفرنجي قد لقي مصرعه عند قيامه بهجوم مضاد من القلعة، وهلك معه مقدم الاسبتارية الذي قدم إلى المدينة المقدسة برفقة مقدم الداوية والبطريرك اللاتيني لبيت المقدس روبرت الذي تمَّ انتخابه منذ زمن قريب، وكانوا قد أدركوا ثلاثتهم معاً مدى مايحيق بالفرنج هناك من خطر، فعجلوا بالمسير إلى المدينة المقدسة، لتعزيز الحامية المرابطة في الاستحكامات التي فرغ وقتئذ الداوية من عمارتها[٤]،

(١) هانس ابرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٢ ص٣٠٣، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٧١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٣.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٢.

(٤) المرجع السابق نفسه.

وكان من ضمن القتلى أيضاً بطريرك الروم(١) وهو رئيس ديني شرقي كان يقيم في دير الأرمن المعروف بدير القديس يعقوب حيث أجهز الخوارزميون هناك على الرهبان والراهبات(٢).

أما القول بأن ملكا دمشق وحمص – وهم من حلفاء الصليبيين – كانا لايجسران على التدخل في ذلك الموقف لحماية الصليبيين في بيت المقدس مما يعرضهما لنقمة الرأى العام في البلدان الإسلامية، فهو قول لايعكس حقيقة موقف أي من الملكين، فالصالح إسماعيل كان قد كاتب الفرنج سنة ٦٣٨هـ واستنصر بهم، واتفق معهم على معاضدته ضد ابن أخيه نجم الدين أيوب، وأعطاهم على ذلك قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف أرنون وبلادها، ومناصفة صيدا، وجبل عامله، وغير ذلك(٣) ومكنهم من دخول دمشق لابتياع السلاح، فشق ذلك على المسلمين، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي الناس بحرمة بيع السلاح للفرنج، وتوقف عن الدعاءله على منبر الجامع في دمشق، ثم غادرها الشيخ عز الدين متوجهاً إلى مصر وكان يؤيده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمر بن الحاجب المالكي(٤).

وأما الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص فإنه لم يتحرج في التوجه إلى عكا سنة ٦٤١هـ حيث نزل هناك في ضيافة فرسان الداوية، وتعهد هناك لهم بأن يكون لهم نصيب في الديار المصرية إن هم شاركوا التحالف الشامي في

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ٣٢.

(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٢.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣١، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٧٨، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣.

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٠، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص١٨٩، وانظر أيضاً دائرة المعارف بزرك إسلامي جـ٤ ص١٩٤ (باللغة الفارسية).

obeikandi.com

الهجوم عليها[١] .

وفي تقديري أن هذا الرأى الذي روّج له المستشرقون الأوربيون أولاً يهدف – على الإجمال – إلى التهوين من قيمة النصر الذي حققه الخوارزميون في القدس، وبالتالي تهوين أثر عودة القدس إلى المسلمين، وهو أمر خطير له دلالته الدينية والإنسانية لدى المسلمين جميعاً.

أياً كان الأمر فقد وصل الخوارزميون إلى بيت المقدس في الحادي عشر من يوليه سنة ١٢٤٤م الموافق للثالث من صفر سنة ٦٤٢هـ[٢] ووقع القتال في الشوارع، وظلت الحامية الصليبية على مقاومتها فترة من الوقت، لكنها اضطرت في النهاية نتيجة لعدم قدوم نجدات صليبية مؤثرة إليها من جهة واشتداد الضغط الخوارزمي عليها من جهة أخرى، إلى طلب الغوث من الملك الناصر داود صاحب الكرك، وهو أقرب الحلفاء المسلمين مكاناً إلى بيت المقدس، غير أن الناصر الذى لم يكن يميل إلى المسيحيين كثيراً، كما كان يكره الحاجة التي تعوزه إلى التحالف معهم، واكتفى بأن أرسل من العساكر مَنْ حمل الخوارزميين على أن يبذلوا للحامية الصليبية الأمان بالمسير إلى الساحل

---

(١) ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ص ٣٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٢، أبو الفدا المختصر جـ٣ ص١٧٢، وانظر أيضاً حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة التيوتون ص٢٤٧ هامش (٥٩) وهو يذكر أن مسألة ذهاب الملك المنصور إبراهيم إلى عكا ونزوله في ضيافة فرسان الداوية «لم ترد إلا عند ابن الفرات (ت/٨٠٧هـ) وحده دون بقية المؤرخين المسلمين»!!

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٥ أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٤٦. وهو يذكر أن حصار الخوارزميين لبيت المقدس قد بدأ في الحادي والعشرين من يوليه ١٢٤٤م الموافق للثالث عشر من صفر سنة ٦٤٢هـ، دون أن يفسر السبب في توقف الخوارزميين عشرة أيام كاملة على أبواب القدس قبل أن يشرعوا في حصارها !!

إذا سلموا القلعة، ثم تخلى بعد ذلك عما ينتظر هذه الحامية من مصير[١].

ويظهر أن الناصر داود كان راضياً في أعماق نفسه عما فعله الخوارزميون بالصليبيين في القدس، فلعل الظروف الخاصة التي أحاطت به قد أملت عليه الرغبة في التعاطف معهم، فأمه كانت خوارزمية الأصل[٢] وأبوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق (ت٦٢٤هـ) كان مؤيداً للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي حتى إنه كان يقسم برأسه في مجالسه ويركب بسنجقه[٣] وكذلك زوّجه ابنته الأميرة دارمرشد[٤] وهي أخت الناصر داود بطبيعة الحال.

ومن جانب آخر كان الناصر داود يدرك أن التحالف مع الصليبيين سيجلب عليه غضب المسلمين الذين أثنوا عليه من قبل عندما حرّره من الصليبيين في يوم الاثنين التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ، فامتدحه آنذاك الشاعر جمال بن مطروح بالأبيات التالية:

المسجد الأقصى له عادة
سارت فصارت مثلاً سائرا

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٢، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٣-١٨٤. وانظر أيضاً حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٤٦ فهو يذكر الآتي «وعلى الرغم من استنجاد المدينة بالصليبيين في عكا إلا أنه لم تصل إليهم سوى حامية صغيرة سرعان ما عادت أدراجها بعد أن علمت بتحطيم أسوار المدينة» ولم يفسر السبب في تأخر وصول هذه الحملة أو صغر حجمها بالقياس لأهمية مدينة بيت المقدس عند الصليبيين.

(٢) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٤.

(٣) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص٩٦، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٤٧ - ١٤٨، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٢٨١.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٠٨ - ٧٠٩، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٣١.

إذا غـــدا بالكـفـــر مـــســـتـــوطنـاً
أن يـبـــــعـث الـلـه لـه نـاصـــــرا
فـنـاصـــــر طـهـــــره أولاً
ونـاصـــــر طـهـــــره آخـــــرا

ولعل الناصر داود أراد أن يصحح الخطأ الذي وقع فيه سنة ٦٤١هـ أي في العام الماضي حين أقدم - خوفاً من الصالح نجم الدين أيوب - على موافقة الصالح إسماعيل صاحب دمشق في التنازل للصليبيين عن المزارات الإسلامية في القدس وكذلك طبرية وعسقلان كما سبق القول، وهو خطأ سياسي نجم عن سوء التدبير وعدم التوفيق اللذين لازما الناصر داود كثيراً.

ويصف المؤرخ المعاصر ابن واصل ما حدث في القدس فيقول: «وهجمت الخوارزمية على القدس، وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى، ولم يبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور ملوك الفرنج التي بالقمامة، وأحرقوا عظام الموتى»[١].

ويصف ستيفن رنسيمان نفس الموقف مع تفاصيل أكثر فيقول: وفي ٢٣ أغسطس سنة ١٢٤٤م الموافق للسادس عشر من ربيع الأول سنة ٦٤٢هـ غادر المدينة حوالي ستة آلاف من المسيحيين من الرجال والنساء والأطفال وتركوها للخوارزمية، وبينما كان هؤلاء المسيحيون يتحركون على الطريق إلى يافا، تطلعت جماعة منهم إلى الوراء فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة، وإذ اعتقدوا أن نجدة قد وصلت بوسيلة من الوسائل أصرَّ عدد كبير منهم على الرجوع إلى المدينة، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوارها، فهلك

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٧، وينقل عنه المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢.

obeikandi.com

منهم نحو ألفين: ومن بقى على قيد الحياة تعرض لهجمات قطاع الطرق من العرب (البدو) في أثناء سيرهم إلى البحر، فلم يصل إلى يافا منهم سوى ثلثمائة رجل(١) .

وتثير الرواية السابقة استفسارين كبيرين :

الأول : لماذا مكث الخوارزميون في القدس وحولها في الفترة ما بين بداية الهجوم في ١١ يوليه سنة ١٢٤٤م إلى ٢٣ أغسطس من نفس السنة وهي فترة تزيد على أربعين يوماً ؟

أكان ذلك نتيجة للمقاومة التي أبداها المدافعون عن القدس؟ أم كان استجابة لإيعاز من الناصر داود ؟ أم انتظاراً لإشارة جديدة واضحة من الصالح نجم الدين أيوب ؟ أم راق لهم المكان باعتباره موقعاً جديداً بعيداً عن خطر المغول الذي كان قد اقترب كثيراً من شمالي بلاد الجزيرة؟

وأغلب الظن أن هذه الأسباب جميعاً هي التي فرضت على الخوارزميين البقاءفي القدس حتى تتكشف حقيقة الأمر، ويتكامل وصول جموعهم من الشرق أي من بلاد الجزيرة .

الثاني : لماذا أبقى الخوارزميون – على خلاف عادتهم – على هذا العدد الكبير من الصليبيين وسمحوا لهم بالخروج من القدس إلى يافا ؟

أكان ذلك خوفاً من رد فعل صليبي يأتي من قبل عكا الصليبية؟ أم لوناً من الرأفة المؤقتة القابعة في أعماقهم تحركت على حين غفلة منهم؟ أم ثقة في

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٢، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٥، تقول د. عفاف صبرة في كتابها التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٩٢ «تعقب الخوارزمية الفرنج الفارين إلى غزة» ، وليس هذا صحيحاً لأن هؤلاء فروا إلى يافا كما ذكرت في المتن، ولم يكن في غزة أي وجود للصليبيين حتى يلجأ إليه هؤلاء الفارون .

الحيلة التي دبروها لاستعادة هؤلاء التعساء والقضاءعليهم تحت أسوار المدينة؟

يبدو أن السبب الأخير هو الدافع الحقيقي وراء ذلك كله، يؤكد ذلك القضاء على الفين من هؤلاء التعساء دفعة واحدة دون تردد.

ويستطرد ستيفن رنسيمان في رواية ما حدث داخل مدينة القدس فيقول: «ولم يظهر الخوارزميون شيئاً من الرأفة بالمدينة، فاقتحموا كنيسة القيامة، ولم يرفض مغادرة المدينة إلا عدد قليل من القسس اللاتين المتقدمين في العمر، الذين كانوا يحتفلون بإقامة القداس، فلقوا مصرعهم مع من كان حاضرًا من قسس المذاهب الدينية الوطنية، ثم جرى إخراج عظام ملوك بيت المقدس من القبور وتحطيمها، واشتعلت النيران بالكنيسة وتعرضت الدور والدكاكين في جميع أنحاء المدينة للنهب، كما احترقت الكنائس حتى أضحى جميع المكان قفراً موحشاً(١)».

ويذكر مؤرخ عراقي محدث أنه «من خلال هجوم الخوارزميين على بيت المقدس واستعادتها للمسلمين تمكنوا من أسر جماعة من أمراءالصليبيين وقسيسيهم وأساقفتهم ومعهم بعض أمراء المسلمين وبعثوا بهم جميعاً إلى الملك الصالح أيوب في مصر(٢)».

وحين فرغ الخوارزميون من أمر القدس توجهوا إلى غزة، فنزلوا بها،

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٣، وانظر أيضاً ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٢.

(٢) نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٤، ولم أعثر في أي من المصادر التي اعتمدت علييا ما يؤكد هذا الرأي، وعندما رجعت إلى المصدرين اللذين اعتمدعليهما نافع العبود وهما المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٧ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٣، لم أجد أي إشارة لذلك، ويبدوأن الأمر قد اختلط عليه لأن هذا الحدث من قبل الخوارزميين قد وقع بعد معركة غزة الثانية وليس في أثناء استيلائهم على القدس.

obeikandi.com

ووردت رسلهم إلى السلطان نجم الدين أيوب يخبرونه بقدومهم لنصرته ويطلبون منه تسيير العساكر إليهم ليحاربوا عمه الملك الصالح إسماعيل، والملك المنصور صاحب حمص(١) .

وأحسن الصالح نجم الدين أيوب استقبال رسل الخوارزميين في القاهرة، وأرسل إلى جموعهم في غزة الخلع والخيل والأموال(٢) وأمرهم أن يقيموا في غزة ومنعهم من دخول مصر، ووعدهم أن يعطيهم الشام(٣) .

ويتضح من موقف السلطان نجم الدين أيوب حيال الخوارزميين مدى تخوفه من دخولهم إلى مصر، لما جبلوا عليه من تمرد وإثارة للشغب والفوضى وتهديد للأمن والاستقرار في وقت حرج تتعرض فيه البلاد لخطر الغزو الخارجي.

التحالف الصليبي الشامي :

بينما كان الخوارزميون ينهبون بيت المقدس كان فرسان الشرق الفرنجي يحتشدون خارج عكا(٤) حيث وافتهم جيوش الأيوبيين، فقد جهز الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق عساكره وجاءت إليه نجده من حلب(٥) وحضر عسكر حمص وعلى رأسه الملك المنصور إبراهيم كما جهز الملك الناصر داود عساكره من نابلس مع الظهير سنقر الحلبي والوزيري، وتقرر أن يقيم الملك الصالح إسماعيل بدمشق، والناصر داود في الكرك، وأن يتولى الملك المنصور قيادة جيوش حمص وحلب ودمشق في أثناء الحرب(٦) .

شرعت القوات المتحالفة في المسير من عكا صوب الجنوب في الرابع من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٦.
(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٣.
(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢.
(٤) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٣.
(٥) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٣.
(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٦.

obeikandi.com

أكتوبر سنة ١٢٤٤م/ نهاية ربيع الآخر سنة ٦٤٢هـ، فسلكت الطريق الساحلي إلى يافا، وكان الجيش المسيحي يعتبر أضخم جيش قذف به الشرق الفرنجي منذ يوم حطين إذ تألف الجيش المسيحي من :

– ٦٠٠ فارس علماني بقيادة فيليب مونتفورت سيدتبنين وصور، ووالتر بريين كونت يافا.

– ٣٠٠ فارس على الأقل من رجال الداوية بقيادة مقدمهم أرمان بريجورد.

– ٢٠٠ فارس من الاسبتارية بقيادة مقدمهم الأكبر وليم شاتونيف.

– ٤٠٠ فارس من فرسان جماعة التيوتون (الألمانية).

– واشترك في الجيش من السرجندارية والرجالة ما يتناسب مع عدد هؤلاء الفرسان.

– وتمثلت الشخصيات المهمة في البطريك روبرت يرافقه رئيس أساقفة صور، ورالف أسقف الرملة، كما أرسل بوهميند أمير انطاكية من أبناء أعمامه يوحنا ووليم سيدي البترون، ويوحنا سيد هام كند سطبل طرابلس.

والراجح أن القوات التي قادها المنصور إبراهيم تفوقت في عددها، ولكنها تقاصرت في تسليحها، وأمدهم الناصر داود فيما يبدو بفرسان من البدو[١].

وتذكر بعض المصادر العربية أن الفرنج كانوا آنذاك ألفاً وخمسمائة فارس

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٤، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٦ – ١٠٤٧؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٥٠ – ٢٥٣.

obeikandl.com

وعشرة الاف راجل عليهم الأمراء والقادة[١] .

وفي المقابل جهّز السلطان نجم الدين أيوب عسكراً من القاهرة وعهد بقيادته إلى الأمير ركن الدين بيبرس – أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك – فسار إلى غزة، ثم خرج الأمير حسام الدين أبو على الهذباني بعسكر ليقيم على نابلس[٢] بهدف تعويق الإمدادات بين الناصر داود في الكرك وبقية الحلفاء على الطريق الساحلي، وكذا الاستعانة به إذا لزم الأمر في أثناء المعركة للضغط على العدو من الخلف .

ووصل جيش الحلفاء إلى عسقلان – وكانت بأيدي الصليبيين – فاجتازها جنوباً متوجهاً إلى غزة، وكان جيش مصر والخوارزميون معه في غزة فتحركا شمالاً في اتجاه عسقلان فتراءى الفريقان على مكان يقال له (أرْبيا) بين غزة وعسقلان[٣] .

موقعة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ :

بادر الحلفاء إلى عقد مجلس حرب، فأوصى المنصور إبراهيم بأنه ينبغى البقاء بمكانهم على أن يحصنوا معسكرهم إزاء كل هجوم من قبل الخوارزميين، وقدر أنه لن يلبث الخوارزميون أن يزدادوا قلقاً، لأنهم يكرهون مهاجمة كل موضع منيع، وليس بوسع الجيش المصري أن يستغنى عنهم فيما يشنه من هجوم، وقد يواتيهم الحظ الطيب فيبادر الجيش المصري بأكمله إلى الانسحاب إلى مصر، فوافقه عدد كبير من المسيحيين.

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٦، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٧، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٨، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٦.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٧.

Obeikandl.com

أما والتر بريين كونت يافا فإنه اشتد في الإلحاح على القيام بهجوم مباشر إذ كانت قواتهم تنوق في العدد الجيش المصري، وقد حانت الفرصة للقضاءعلى تهديد الخوارزميين، وإذلال الصالح نجم الدين أيوب، فاتخذ والتر بريين طريقه إلى الحرب، وتحرك الجيش بأكمله للهجوم[١].

وترتب جيش الحلفاء عند المواجهة بحيث كان في القلب الملك المنصور على رأس جيش حمص ودمشق وحلب، وفي الميسرة الظهير سنقر والوزيري على رأس عسكر الناصر داود، وفي الميمنة القساوسة والكنود ومقدما الداوية والاسبتارية على رأس عسكر الفرنج[٢].

وفي المقابل وقف الجيش المصري في الميسرة قبالة الفرنج، مكوناً من خمسة الآف جندي من خيرة العسكر المصري انداك، وفي القلب والميمنة تركز الخوارزميون بقيادة بركة خان وكانوا يزيدون على عشرة الآف فارس كما سبق القول.

من ذلك الترتيب يمكن أن نلاحظ أن المواجهة المرتقبة كانت بمثابة إعطاء الفرنج فرصة للثار من هزيمتهم أمام المصريين في معركة غزة الأولى في يوم الأحد الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ في أيام العادل الثاني الأيوبي[٣] كما كان فرصة للخوارزميين كي يثأروا لهزيمتهم أمام الملك المنصور إبراهيم قرب

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٧.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٠، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٣٥-١٠٣٦. وهو يذكر أن الجيش الذي أرسله العادل الثاني إلى غزة سنة ١٢٣٩م / ٦٣٧م كان بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي، وليس هذا صحيحاً لأن هذا الأمير كان آنذاك محبوساً بالكرك مع سيده السلطان نجم الدين أيوب، أما قائد هذه الحملة فيدعى الأمير ركن الدين البيجاوي. انظر أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٧٠. النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٥٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٨٩، ٢٩٢.

obeikandl.com

الرها سنة ٦٣٨هـ، وفي المجدل سنة ٦٤٠هـ.

ومن اللافت للنظر أن المنصور إبراهيم وسائر عسكر المسلمين قد وقفوا تحت أعلام الفرنج، وعلى رؤوسهم الصلبان، والأقساء في الأطلاب يصلبون عليهم ويقسسون، وبأيديهم كئوس الخمر يسقونهم[١].

وأخيراً وقع الالتحام بين الجيشين في يوم الاثنين الثاني عشر من جمادي الأولى سنة ٦٤٢هـ الموافق للسابع عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٤م[٢]، وبينما كانت العساكر المصرية ترد هجوم الفرنج حمل الخوارزميون على الشاميين المحالفين للفرنج، وصمد في القتال المنصور إبراهيم وعساكره من حمص، وحافظوا على مراكزهم، ولكن عساكر دمشق لم تستطع أن تتحمل الصدمة فاستدارت وولت الأدبار، وحذا حذوهم جيش الناصر داود، وبينما كان المنصور إبراهيم يشق طريقه للخروج تحول الخوارزميون فانقضوا على جناح المسيحيين فساقوهم إلى القوات المصرية، واستبسل الفرنج في القتال دون جدوى، ففي ساعات قليلة تحطم كل جيشهم[٣] ومن الذين لقوا مصرعهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور، وأسقف الرملة وسيدا البترون، ووقع في الأسر والتر بريين كونت يافا، ومقدم الاسبتارية الأكبر وليم شاتونيف، وكند سطبل طرابلس، ولاذ بالفرار إلى عسقلان فيليب مونتفورت والبطريرك، ولحق بهما من بقي على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية منهم ثلاثة وثلاثون من الداوية وستة وعشرون من الاسبتارية وثلاثة من الفرسان

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٦، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٢ - ١٣٣.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٧٤؛ هانس ابرهاردماير. تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٠. احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جـ٥ ص٤٥٩.

(٣) انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٥.

التيوتون، فابحروا إلى يافا، وجرى تقدير عدد القتلى بأنهم لم يقلوا عن خمسة الآف قتيل، والراجح أنهم يزيدون على ذلك، ونقل نحو ثمانمائة أسير إلى مصر(١) .

ولا يختلف هذا الوصف كثيراً عما تناقلته بعض المصادر العربية وفيها «وأول ما كسرت الميسرة وهرب الوزيري وأسر الظهير سنقر، وجرح في عينه، وانهزم صاحب حمص، ومالت الميمنة بالفرنج، فرأوا الميسرة والقلب قد انكسرا، فخذلوا، فأحاطت بهم الخوارزمية، وكان عسكر مصر قد انهزموا إلى قريب العريش، ورموا كوساتهم وأثقالهم، وثبتت الخوارزمية، وما كانت إلا ساعة حتى حصدتهم الخوارزمية بالسيوف حصداً جيداً، وأسروا منهم ثماني مائة أسير(٢) .

فهذا الوصف يكشف عن خطة المعركة وهي انسحاب المصريين جنوباً في اتجاه العريش لسحب الصليبيين وفصلهم عن جيش حلفائهم من جند دمشق وحلب وحمص والكرك، وتمكين الخوارزمية من الإحاطة بهؤلاء الحلفاء في المسافة بين ميمنتهم والقلب، وقد نجحت هذه الخطة في تحقيق الهدف المنشود. يقول المؤرخ المعاصر ابن واصل «وانتصرت العساكر المصرية نصرة عظيمة، ووردت البشائر بذلك إلى مصر(٣) .

ويقول مؤرخ معاصر آخر «كانت هذه الوقعة بين عسكر مصر ومقدمه

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٥ – ٣٩٦، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٦ – ١٠٤٧ عن
Stevenson (W.B) : the Crusaders in the Esst. P. 239 (Cambridge, 1907)
وانظر أيضاً حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة التيوتون ص٢٥٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٦ وعنه نقل النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٦، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٢ – ١٣٣.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٩، وانظر أيضاً : ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٣٧.

obeikandi.com

الأمير ركن الدين بيبرس الصالحي وبين عسكر الشام ومقدمه المنصور صاحب حمص ومعهم أفرنج الساحل، فكسرت الأفرنج ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة وغُنِمَ منهم أموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وذهب برؤوس المقتولين والمأسورين إلى مصر(١).

ويقول مؤرخ مسيحي معاصر وثبتت الديوية والاسبتارية قبالة العساكر المصرية والخوارزمية، وقاتلوا إلى أن قتلوا جميعاً، ولم يبق منهم إلا نفر يسير أسروهم وحملوهم إلى مصر(٢).

وكان المؤرخ المعاصر أبو المظفر قزاوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي موجوداً بالقدس في يوم المعركة وارتحل عنها في اليوم التالي متوجهاً إلى غزة فوصف ما رآه من آثار المعركة هناك فقال: «ولقد أصبحت ثاني يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب، فقالوا: هم زيادة على ثلاثين ألفاً(٣).

ويؤيد النويري وابن كثير والمقريزي(٤) هذه الرواية على حين ينفرد الصفدي وحده بالقول «وزادت القتلى على عشرين ألفاً»(٥).

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٧٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٣، وانظر أيضاً ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٣٥٨.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٦. المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٧.

(٥) الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣، وتفتقر روايته هنا إلى شيء من الدقة ومن ذلك مثلاً أنه يذكر أن الصالح إسماعيل صاحب دمشق سار إلى غزة مع أنه لم يحضر هذه المعركة، وكذلك يذكر أن عسكر مصر قد هرب من المعركة!!

وقد أجمع معظم المؤرخين المسلمين[١] الرأى على أن الانتصار في غزة كان يوماً عظيماً لم يجر في الإسلام مثله لافي زمان نور الدين محمود أو صلاح الدين الكبير، على حين اطلق بعض المؤرخين المحدثين على هذه المعركة «حطين الثانية»[٢].

أما ما أصاب الصليبيين على وجه الخصوص فقد عبر عنه بعض من مؤرخي الحروب الصليبية الأوربيين فقد قال أحدهم «إن الخسارة في القوة البشرية جعلت الشرق الفرنجي من العجز بحيث لم يعد قادراً على الدفاع إلا عن المناطق الساحلية المنيعة، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر سوى معركة حطين»[٣]، وقال ثانيهم: «وكانت هذه الهزيمة أسوأ ما عرفوه منذ معركة حطين»[٤]. وقال ثالثهم: «وفي غزة هزمت قوة من المصريين والخوارزميين الجيش المسيحي بشكل مزعج، وانقذ النزاع المرير في المعسكر الإسلامي المسيحيين من خذلان تام، فتراجعوا إلى مدينتهم الساحلية المحصنة»[٥].

والغريب أن هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الشرق الأدنى الإسلامي لم تلق حتى الآن من كثير من المؤرخين ما تستحقة من العرض والدرس والتحليل الذي يتناسب مع ما ترتب عليها من آثار مهمة كان لها أبعد الأثر على ما تلاها من أحداث.

---

(١) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٧٢، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٦، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي جـ٥ ص٤٥٩، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة التبوتون ص٢٥٣.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٧.

(٤) هانس ابرهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٠.

(٥) انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢.

الآثار غير العسكرية :

لم تتوقف نتيجة المعركة السابقة عند انتصار المصريين والخوارزميين عسكرياً على أعدائهم من الصليبيين وحلفائهم الشاميين وما ترتب على ذلك من الآف القتلى ومئات الأسرى فحسب، وإنما امتد ذلك إلى آثار أخرى مهمة.

١- **الأثر الاقتصادي** : وقد تمثل ذلك في استيلاء المصريين والخوارزميين على أموال المنهزمين وأثقالهم حتى إنهم حازوا – حسب رواية المقريزي – على ما يجل وصفه من الأموال(١) .

فبالنسبة للصليبيين على وجه الخصوص فد تمثلت خسارتهم المادية – إضافة إلى ما سبق – في فقدهم الكثير من الأراضي التي كانوا يمتلكونها ، وقد تضمن خطاب من الأراضي المقدسة مؤرخ في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٤٤م الموافق للثالث والعشرين من جمادي سنة ٦٤٢هـ وصف الحالة على النحو التالي : «ينطلق الخوارزميون دون أي عقبة، ولايستطيع أحد مقاومتهم، يستولون على البلاد، ويتقاسمونها كما لو كانت ملكاً لهم ويعينون ضباطاً لهم في المدن والقرى المسيحية، ويجمعون المحاصيل، ويجبون الضرائب التي كان الفلاحون يدفعونها للصليبيين(٢) .

أما الشاميون المناصرون للصليبيين فقد نالوا حظهم من الخسائر حيث أُخِذَ جميع مال الظهير سنقر قائد جيش الناصر داود حتى أصبح فقيراً – حسب رواية سبط ابن الجوزي – ونهبت خزائن المنصور إبراهيم صاحب

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٧، وانظر أيضاً ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٣، وأبا شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٤ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٥٣ – ٢٥٤ نقلاً عن Mathhew. Paris.chromica IV. P37.

حمص وخيله وسلاحه حتى إنه طلب شاشاً ليتعمم به فلم يجد[١] .

٢- الأثر النفسي : وتمثل في مدى الفرحة الغامرة التي عبر عنها المصريون في مظاهر الاحتفال التي ازدانت بها مصر كلها إذ لما قدمت البشارة إلى السلطان نجم الدين أيوب في الخامس عشر من جمادي الأولى سنة ٦٤٢هـ الموافق للعشرين من أكتوبر سنة ١٢٤٤م، أمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتي الجبل والروضة، فبالغ الناس في الزينة، وضربت البشائر عدة أيام، ووصل إلى مصر أساري الفرنج راكبين الجمال والمقدمون منهم على خيولهم ومعهم جماعة من أصحاب الملك الناصر داود، وجماعة من عسكر دمشق، فكان دخولهم القاهرة يوماً مشهوداً، وعلقت رؤوس القتلى على أبواب القاهرة، وملئت الحبوس بالأسرى[٢] .

وقد اشتفت نفوس الخوارزمية بالثأر من غريمهم المنصور إبراهيم الذي جعل يبكي بعد المعركة ويقول: «والله لقد حضرت الحرب ذلك اليوم، وأوقع الله تعالى في قلبي أننا لاننتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين، وقد علمت أنه لما سرنا تحت الصلبان أننا ما نصلح أبداً»[٣] ثم مضى الملك المنصور ومن بقي معه من العسكر في أسوأ حال، ودخل دمشق وهو لايصدق بالنجاة، فلم يقبل عليه الصالح إسماعيل على عادته فعسر عليه ذلك[٤] .

٣- الأثر السياسي: وتمثل في الخسارة السياسية الفادحة التي أصابت الصليبيين، فقد سلبتهم الهزيمة أمام المصريين والخوارزميين كل ما أحرزته لهم

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٧، وانظر أيضاً الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٨، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٧.

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٦.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٣، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٩.

obeikandi.com

الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين الأخيرة[١] أي منذ قدوم الملك فردريك الثاني إلى بيت المقدس إلى المفاوضات التي أجريت مع السلطان نجم الدين أيوب سلطان مصر، والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق وحلفائه في الكرك وحمص.

وترتب على ذلك أن أصبحت الأراضي المسيحية المقدسة في حاجة ماسة إلى مساعدة جديدة وتدابير جديدة[٢] وكان بطريق بيت المقدس قد بادر بإرسال سفارة إلى الغرب الأوربي عقب استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤م ليشرح للبابوية وملوك الغرب الأوربي وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام، ويطلب منهم المعونة العاجلة، وقد غادرت تلك السفارة ميناء عكا في نوفمبر سنة ١٢٤٤م، أي بعد هزيمة الصليبيين في غزة - وكانت مؤلفة من أسقف بيروت وبطريق أنطاكية فأدت جهودهما إلى عقد مجمع ليون في فرنسا[٣].

وعلى هذا ففي الجلسة الأولى التي عقدت في ١٨ يونية سنة ١٢٤٥م لهذا المجمع قرر أعضاؤه - ضمن ما قرروا - تخليص القبر المقدس من المسلمين، بتجريد عساكر لإنقاذهم في حرب صليبية، وأن البابا والأساقفة يقدمون للنفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم، وباقي الأكليريكيين نصف عشر مداخيلهم، وأصدروا الأوامر اللازمة لتجهيز هذه الحرب[٤].

وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا نهباً للقلاقل والاضطرابات نهضت فرنسا وحدها وعلى رأسها مليكها القديس لويس التاسع بعبء الحملة

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٧.

(٢) أرنست باركر : تاريخ الحروب الصليبية ص١١٨.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٥٢.

(٤) سيد علي الحريري : الحروب الصليبية ص٢٤٩.

الصليبية السابعة(١) وقد حاول هذا القديس أن يكفل النجاح لهذا الأمر الخطير فسعى للتوسط بين البابا أنوسنت الرابع والأمبراطور فردريك الثاني غير أنه لم يحرز شيئاً من النجاح(٢) .

وجاء على رأس العوامل التي دفعت الملك الفرنسي للقيام بحملته ماأنزله الخوارزمية باللاتين في الشرق من شتى صنوف العذاب ومنها ضياع بيت المقدس من أيدي الفرنج، وأنهزامهم عند غزة والتنكيل بهم، والاستهتار بحرمة المعابد والكنائس، واشعال النيران في قبر المسيح، فكان كل ذلك باعثاً على فزع القديس لويس بخاصة وأهل الغرب بعامة، وسبباً في إثارة مشاعرهم وحفز هممهم للثأر لما نزل بالأراضي المقدسة(٣) .

وفي جبهة أخرى تمثل الأثر السياسي أيضاً في فتح الباب على مصراعيه أمام النفوذ المغولي الذي استشرى في بلاد سلاجقة الروم منذ أن تمكن جيش المغول بقيادة « بايجو » نوين من الانتصار على جيش السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو عند « كوسه داغ » أي الجبل الأقرع على مقربة من اذربيجان في يوم الجمعة السادس من المحرم سنة ٦٤١هـ/ السادس والعشرين من يونيه سنة ١٢٤٣م(٤) .

وفي سنة ٦٤٢هـ شرع المغول في فرض نفوذهم جنوباً، فهددوا بلاد شمالي الجزيرة، فتعرضت ميافارقين وماردين وحرّان والرها لمحنة الخضوع للنفوذ

---

(١) هانس ابرهاردماير : تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٣، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص٣٣.

(٢) أرنست باركر : تاريخ الحروب الصليبية ص١٢٠.

(٣) جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص٥٠ ــ ٥١، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا ص ١٣٣.

(٤) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٨٧، السيد العريني : المغول ص ١٨٣، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص١٨٣.

obeikandi.com

المغولي[١] وكذلك عبر القائد المغولي «يساور» نهر الفرات سنة ٦٤٢هـ إلى حيلان بجوار حلب، ولم يدخلها لأن حوافر خيل عسكره تعطلت بسبب يبوسة الأرض والحر، فأرسل إلى صاحب حلب يطلب مالاً، فأرسل إليه كل ما طلب ورجع من هناك[٢].

وفي نفس السنة ورد إلى دمشق كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل - وقد أصبح تابعاً للمغول - يقول: «إنني قد قررت على أهل الشام قطيعة للتتر في كل سنة من الغنى عشرة دراهم ومن المتوسط خمسة، ومن الفقير درهم» فقرأ القاضي محيي الدين بن الزكي الكتاب على الناس، ووقع الشروع بالجمع»[٣].

ولا تشير المصادرالتاريخية إلى موقف الصالح إسماعيل صاحب دمشق آنذاك من هذا الأمر، ويبدو أنه تجاهل الموضوع، فقد كان مشغولاً بمحالفة الصليبيين ضد أخوانه المسلمين في مصر!

وعموماً فقد تجلى الأثر السياسي للضغط المغولي الذي نجم أصلاً عن حالة التمزق السياسي والصراع العسكري التي عاشها المسلمون - فترة طويلة - في الشرق الأدنى الإسلامي في حضور شخصيات إسلامية مهمة للقوريلتاي (المؤتمر المغولي العام) الذي عقد في قراقورم بمنغوليا لتتويج كيوك ابن أوكتاي خاقاناً أعظم للمغول سنة ٦٤٤هـ، فقد حضره شقيق الملك الناصر صاحب حلب، والقاضي فخر الدين الدامغاني قاضي قضاة بغداد مندوباً عن الخلافة العباسية[٤] وسلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وغيرهم[٥].

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٩٤، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص٣٢٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤٥، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٥، القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٧٧.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٩، أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى ص ١٨٨.

(٥) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص١٨١، السيد العريني: المغول ص ١٩٣.

obeikandl.com

التحرك الخوارزمي التاسع (غزة - حمص) ٦٤٢هـ

أخفق السلطان الصالح نجم الدين أيوب في استخلاص ولده المغيث عمر من أسر الملك الصالح إسماعيل له في دمشق، وحبسه في أحد أبراج قلعتها وما لبث المغيث أن مات في سجنه غماًوغبناً في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٢هـ(١) أي قبل معركة غزة الثانية بحوالي عشرين يوماً على وجه التقريب، فكظم نجم الدين غيظه، وأصر على الانتقام من عمه.

وحين انتهت المعركة أرسل نجم الدين إلى الأمير ركن الدين بيبرس قائد الجيش المصري بغزة، والأمير حسام الدين بن أبي علي - وكان مقيماً بعسكر على نابلس كما سبق القول - يأمرهما بمنازلة عسقلان الواقعة على الساحل والتي سُلِمَت من قبل الصالح إسماعيل والناصر داود إلى الفرنج من قريب فبنوا قلعتها وحصنوها، فتقدم ركن الدين وحسام الدين بمن معهما من عسكر مصر إليها، ونازلوها وضايقوها، فامتنعت عليهم لحصانتها(٢).

وفي تلك الأثناء هرع الخوارزميون إلى يافا الواقعة شمالي عسقلان لعلهم يحصلون على حظ أوفر من نظرائهم المصريين، وجاء معهم أسيراً والتربريين كونت يافا، وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية، غير أن الكونت الأسير صاح برجاله أن يثبتوا في القتال، وكانت استحكامات يافا من المناعة ما يعجز الخوارزميون عن مهاجمتها، فانسحبوا بأسيرهم الذين أبقوا على حياته على أنه مات فيما بعد عقب شجار نشب بينه وبين أمير مصري كان يلاعبه الشطرنج(٣).

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٥١، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٧٩.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٠، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٨.

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٦.

وأدى صمود عسقلان ويافا في وجه الهجمات الخوارزمية والمصرية إلى أن اضطر السلطان نجم الدين أيوب إلى اتخاذ عدة إجراءات منها أن يستمر الأمير ركن الدين بيبرس محاصراً لعسقلان على أن تتحرك سفن الأسطول من مصر لمراقبة الساحل[١] وأن يعود الأمير حسام الدين بن أبي على بعسكره إلى نابلس وأن يقيم فيها، وترتب على ذلك تمكن نواب السلطان الصالح نجم الدين بغزة والساحل وبيت المقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار حتى إنه لم يبق بيد الملك الناصر إلا الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[٢].

أما الخوارزميون الذين ضايقهم الصالح نجم الدين أيوب بعدم السماح لهم بنزول أراضي مصر الخصيبة،وغموض موقفه بالنسبة لما كان قد وعدهم به قبل معركة غزة الثانية من تمليكهم الشام، فقد بدأوا يشعرون بالملل بعد عجزهم عن اقتحام يافا فاستداروا، وأغاروا على فلسطين، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا ثم ارتدوا عنها للداخل مترقبين ما قد تسفر عنه الأحداث[٣].

ولم يغب عن الصالح نجم الدين أيوب خطورة ما يعتمل في نفوس الخوارزميين نحوه من ضيق وغضب، فرأى أن يستنفذ طاقتهم القتالية بعيداً عن ممتلكاته في مصر والشام، فوجههم إلى إدراك ثأره قبل عمه الصالح إسماعيل.

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٠، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٨ ونقلت عنهما عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٩٤، ولكنها أخطأت فنسبت الأمر للصالح اسماعيل بدلاً من الصالح نجم الدين ولعل ذلك يكون سهواً منها.

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٧، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٧.

onekandi.com

حصار دمشق :

أخرج الصالح نجم الدين أيوب وزيره الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ بباقي عسكر مصر وخوّله سلطات واسعة، وكتب إلى الخوارزميين أن يسيروا في خدمته، فسار معين الدين من القاهرة بالعساكر إلى غزة، ومن هناك توجه إلى بيسان فأقام بها مدة[١] استمرت بضعة شهور استطاع خلالها استكشاف حقيقة الأمور وإعداد الآت الحصار، وتنظيم جيشه، واستقبال جموع الخوارزميين فلما أطمأن إلى ذلك كله تحرك بالجيش في اتجاه دمشق فوصل إليها في إبريل سنة ١٢٤٥م[٢] الموافق لذي الحجة سنة ٦٤٢هـ، فشرع في حصارها،وبها صاحبها الصالح إسماعيل ومعه المنصور إبراهيم صاحب حمص[٣].

وفي دمشق كان الرعب قد تمكن من قلب صاحبها، فتهيأ للحصار، وخرّب رباعاً كثيرة حول البلد، وقطع الجسور التي تحفظ مياه بردى فأضحت الأراضي الواقعة خارج أسوار دمشق مستنقعاً يتعذر اختراقه[٤] وغرقت المساكن التي على حافة بردى بين جسري بابي توما والسلامة بسبب إخراب باب توما وحده، إذ رجع الماء وارتفع وصار بحيرة فوقع ما كان على حافته[٥] من الدور وغيرها.

ولم يجد ذلك نفعاً أمام ماجبل عليه الخوارزميون من قسوة وخشونة،

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٨ - ٣١٩.

(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٧.

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٢ - ١٧٣، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٩، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٣٧.

(٤) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٧، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٤٧.

(٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦٦.

فسرعان ما شرعوا يعيثون فساداً في أعمال دمشق[١] بل أنهم أمعنوا في قطع الطريق على الناس، وزحفوا على البلد من كل ناحية[٢] .

وفي يوم الاثنين الثامن من المحرم سنة ٦٤٣هـ ضويقت دمشق مضايقة شديدة، وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج (وهو محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية، وتنسب إلى حجاج ابن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان)، والشاغور،واستولى الحريق على مساجد وخانات،ودور عظيمة، ومن ذلك مسجد جراح باب الصغير، وكان جامعاً تقام فيه الجمعات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق، ورميت به بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد ، وترامي الفريقان، وأمر (أى الصالح إسماعيل) بتخريب حارة العقبية خارج باب الفراديس، وباب السلامة، وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر[٣] ثم أرسل الصالح إسماعيل الزرافين يوم الثلاثاء تاسع المحرم فأحرقوا جوسق والده العادل الأيوبي، وامتد الحريق في زقاق الرمان إلى العقبية فأحرقت بأسرها[٤] .

وقد أسفر ذلك كله عن انتهاب أموال الناس حتى افتقر كثير منهم وغلت الأسعار[٥] واشتد الغلاء حتى زادت أوقية الخبز على نصف درهم، وبلغ التبن

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٢، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١٠.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٥، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٠.

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٣٧ – ١٧٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٣٥٢، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٠.

أن بيع كل أوقية بقرطاس[١] ولم تعد الطرق آمنة، وفقد العديد من الناس بيوتهم وتشردوا على الطرق، فاحترق بعضهم، وجرت بدمشق شدائد بشعة لم تتم عليها من قبل[٢] حتى إن الجنائز توقفت عن البروز إلى ظاهر دمشق خوفاً من أذى المحاصرين ومن ذلك جنازة الشيخ تقي الدين أبي الصلاح عثمان الإمام العلامة مفتي الشام ومحدثها وكانت وفاته في دارالحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٣هـ وصلى عليه بجامع دمشق وشيعه الناس إلى داخل باب الفرج ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية[٣] .

وهكذا لم يعد أمام الملك الصالح إسماعيل،والملك المنصور إبراهيم إلا طلب الأمان وتسليم دمشق إلى جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، لأنهما علما أنه لاطاقة لهما بعساكر مصر لكثرتها، وقلة من عندهم من العسكر، مع فناء ما بقلعة دمشق من الذخائر، وقد تخلى عنهم الحلبيون، وليس معهم مدد[٤] .

ويبدو أن كلاً من الملكين قد اختار في البداية طريقاً مختلفاً للتعامل مع الموقف الصعب «ففي ربيع الآخر سنة ٦٤٣هـ خرج الملك المنصور من دمشق إلى ظاهرها واجتمع مع الأمير بركة خان رئيس الخوارزمية، واستبشر الناس باجتماعهما، وعاد الملك المنصور إلى دمشق»[٥] .

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨.

(٢) الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٠.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٥ - ١٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٤، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٣٧.

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١١، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٠ وإن كان يحدد تاريخ ذلك في ربيع الأول لا الآخر.

ويفسر المؤرخ المعاصر ابن العميد موقف المنصور إبراهيم الذي كان موتوراً من قبل الصالح إسماعيل منذ أن أعرض عنه عند عودته مهزوماً من غزة في جمادى الآخرة سنة ٦٤٢هـ فيقول : «وعزم الملك المنصور أن يسلم دمشق إلى الخوارزمية من باب شرقي نكاية في الملك الصالح إسماعيل ثم انثنى عزمه عن هذا العزم خوفاً على المسلمين من الخوارزمية[١] .

أما الصالح إسماعيل فقد فوض وزيره أمين الدولة في إجراء الصلح ، فأرسل الوزير يطلب من الصاحب معين الدين شيئاً من ملبوسه، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل، فلبسها الوزير وخرج إلى معين الدين بعد العشاء وتحدث معه ساعة، ثم عاد إلى دمشق ثم خرج مرة أخرى، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق إلى الصاحب معين الدين على أن يكون للصالح إسماعيل ما كان له أولاً وهو بعلبك وأعمالها وبصرى وبلادها والسواد، وأن يكون للملك المنصور حمص وتدمر والرحبة[٢] بشرط أن يمكنهم من الخروج ولايتعرض إليهم في شيء من أموالهم وجميع ما يتعلق بهم[٣] .

ولما تحقق الصلح في ثامن جمادي الأولى زال الحصار عن دمشق، ورحل في الليل عنها الملك الصالح إسماعيل إلى بعلبك، والملك المنصور إلى حمص، ودخل إليها من الغد الصاحب معين الدين، فزال الخوف والظلم عنها والوجل والمصادرات[٤] .

وفي إجراء حاسم منع الصاحب معين الدين الخوارزمية من دخول

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨ .

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢١ .

(٤) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٦ .

obeikandi.com

دمشق، واسترضاء لهم أصدر – وفقاً للسلطات المخولة له من السلطان نجم الدين أيوب– مناشير أقطع فيها ملوك الخوارزميين وأمراءهم أكثر بلاد الشام والساحل[١] لكنهم امتعضوا من هذه الاقطاعات ورأوا أنها لاتفى بالغرض المطلوب[٢] وأن الأمر كله لايعدو أن يكون أكثر من مسألة شكلية بعيدة عن الواقع العملي، لأن معظم مدن الساحل كانت بأيدي الصليبيين وما عداها كان ملكاً للأيوبيين أو إقطاعاً لهم.

وينبغي أن نتوقف هنا لنقرر أن الأضرار الجسيمة التي أصابت مدينة دمشق وأهلها وبخاصة داخل الأسوار في مطلع سنة ٦٤٣هـ أي في أثناء الحصار الأول لم تكن من جراء ما اقترفت أيدى الخوارزميين وحدهم، وإنما يشاركهم في إثمها وبنصيب أكبر الملك الصالح إسماعيل الذي خرّب وأغرق وأحرق مواضع عدة بها،والصاحب معين الدين الذي أحرقت مقذوفات مجانيقه وهدمت مواضع أخرى غيرها.

حقاً .. قد يكون الخوارزميون مسئولين عما جرى من اعتداءات وجرائم وقعت خارج أسوار دمشق غير أن هذا لايقاس بما ارتكبه غيرهم داخل هذه الأسوار.

كذلك ينبغى الإشارة إلى أن الخوارزميين بعد أن تركوا إقطاعاتهم في الشرق وبخاصة في مدينة نصيبين، ونزلوا إلى الشام تلبية لطلب سلطان مصر نجم الدين أيوب، لم يعد لهم بعد طول فترة الحصار الذي استغرق أكثر من خمسة شهور حول أسوار دمشق إلا الاعتماد على قوائم سيوفهم في نهب ما تقع عليه عيونهم خارج هذه المدينة وفي أقرب نقطة إليها، وهي غوطة دمشق

---

(١) الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢١، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٦.

(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٨، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٣٥٨.

obeikandi.com

التي اشتهرت في الأدب العربي بوفرة خيراتها وطيب العيش فيها،غير أنهم تمهلوا إلى حين قريب، ومكثوا متربصين عسى أن تنجلي الأمور عن شيء جديد .

وكان السلطان نجم الدين قد اشتد غضبه على وزيره الصاحب معين الدين وأنكر عليه وعلى الأمراءالمصريين تنفيس خناق عمه الصالح إسماعيل وتمكينه من الذهاب سالماً بحشاشة نفسه، فإنه كان لايرى إلا إعدامه خنقاً عليه بسبب اتهامه بقتل ولده المغيث عمر، ولما بدا منه في حقه، ومن ثمة ورد كتاب السلطان على الأمير حسام الدين بن أبي علي وهو بنابلس يأمره بالتوجه إلى دمشق متولياً لها، فمضى إلى دمشق ودخلها وأقام بها، ومرض الصاحب معين الدين بدمشق، وتوفي بها بعد دخول حسام الدين بأيام في ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٤٣هـ فقرر السلطان نجم الدين أيوب بقلعة دمشق الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير[١] فدبرا الدولة تدبيراً جميلاً وعدلاً في الرعية[٢] .

أما الخوارزمية الذين لم يمكنوا من دخول مصر أو دمشق، ولم يحضروا الصلح الأخير، ولما يعلموا به، فإنهم لما علموا أيقنوا حقيقة الأمر فتغيرت خواطرهم على السلطان نجم الدين أيوب وقرروا الخروج عن طاعته[٣] ، ومن ثم اتجهوا إلى داريا (وهي قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بغوطتها) فنهبوا أهلها وأتلفوا ما كان عليها[٤] وجاء هذا تعبيراً عما استكن في

(١) ابن واصل مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٩، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٥٠، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨.

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ٣٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢١.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١٢.

(٤) الذهبي: العبر جـ٥ ص١٧٤، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٣ : السيد العريني: المغول ص٩٦.

Obeikandl.com

نفوسهم ضد السلطان ، وتذكيراً له بمدى قوتهم وسطوتهم.

وتوافق مع الخوارزميين في عدائهم للسلطان نجم الدين أيوب خصم لدود له هو عمه الصالح إسماعيل الذي بلغه إنكار السلطان على أمرائه لكونهم مكنوه من التوجه إلى بعلبك، فخاف على نفسه، وتأكد من سوء رأى السلطان فيه، وأنه متى ظفر به لايبقى على حياته، فكاتب الأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صرخد (وهي قلعة حصينة واسعة ملاصقة لبلاد حوران في جنوبي دمشق) وأمراء الخوارزميين، فاتفقوا معه وحلفوا له[١].

وراسل الخوارزميون كذلك الملك الناصر داود صاحب الكرك وكان موتوراً من قبل السلطان نجم الدين - وكانت أمه خوارزمية كما سبق القول - فوافقهم، ونزل إليهم، وتزوج منهم ثم عاد إلى الكرك، واستولى نوابه على ماكان بيد الأمير حسام الدين بن أبي على الذي كان قد ترك نابلس من قريب وتوجه إلى دمشق، فكان مما استولوا عليه نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، وهرب منهم نواب السلطان نجم الدين أيوب[٢].

وعمل الخوارزميون على استقطاب عنصر آخر مهم إلى حلفهم الجديد، فكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يداً واحدة، وأن يزوجوه منهم، فمال إليهم[٣].

تقول مؤرخة محدثة في تفسير موقف الأمير بيبرس في هذا الشأن «وافق بيبرس على هذا العرض، وانضم إليه تحدوه الرغبة في تحقيق السلطان

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٤، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١٤ - ٣١٥، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٤، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٣٧.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥١، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٢.

السياسي في بلاد الشام»[١] ، وهو قول غامض في تقديري، فهل المقصود بتحقيق السلطان السياسي تحقيق الوحدة السياسية، وعلى فرض تحقيق ذلك، أيكون هذا تحت جناح الخوارزميين أم الصالح إسماعيل أم الناصر داود ؟ أم هم معاً؟! وأين سيكون مكان هذا الأمير في ظل هذا السلطان السياسي المزعوم؟

أغلب الظن أن هذا الأمير شأن غيره ممن تعامل عن قرب مع السلطان نجم الدين أيوب قد عاني من فرط خشونته وتعاليه وقسوته في العقاب، وتلك الصفات نفسها كانت تدفع جيرانه في الشرق إلى محاولة التخلص منه، فلعله كان يبحث عن ملجأ يلوذ به بعيداً عن هذا السلطان الصارم.

دمشق وعودة الحصار :

استغرق الخوارزميون بعض الوقت في إقناع زعماء قوى التحالف الجديد المعادى للسلطان نجم الدين أيوب وتوحيد كلمتهم، ثم اتخذوا خطوة عملية لحث الحلفاء على المشاركة الفعلية فتوجهت فرسان الخوارزميين صوب أسوار مدينة دمشق وشرعوا في حصارها في مطلع شهر شوال سنة ٦٤٣هـ[٢] .

وظل الصالح إسماعيل صاحب دمشق السابق قابعاً في بعلبك يترقب رد فعل السلطان نجم الدين أيوب تجاه محاصرة الخوارزميين لمدينة دمشق، فلما تيقن من إحكام الخوارزميين قبضتهم على دمشق رأى ألا يضيع الفرصة، فتحرك بجيشه من بعلبك في اتجاه الجنوب فوافي الخوارزميين على دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة[٣] وكذلك فعل الأمير عز الدين أيبك

---

(١) عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٩٧.

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٨، وانظر أيضاً نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٨٧، فهو يخطئ في تحديد تاريخ بداية محاصرة الخوارزميين دمشق للمرة الثانية فيجعله في أول المحرم من سنة ٦٤٣هـ، والصحيح ما أثبته في المتن، ويبدو أن الأمر اختلط عليه فلم يفرق بين الحصار الثاني والحصار الأول الذي وقع فعلاً في شهر المحرم سنة ٦٤٣هـ، انظر : أبا شامة : نفس المصدر ص ١٧٥.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١٤.

المعظمي صاحب قلعة صرخد(١) .

وفي داخل دمشق قام الأمير حسام الدين بن أبي على بحفظها أحسن قيام(٢) وصمدت القلعة كذلك بقيادة الأمير شهاب الدين رشيد الكبير، على الرغم من عدم وجود عسكر كبير بدمشق آنذاك(٣) .

وانقطعت الميرة عن دمشق، وغلت الأسعار بها إلى الغاية، وأوردت المصادر التاريخية(٤) بيانات هذه الأسعار التي كانت تزداد ارتفاعاً مع اشتداد الحصار فكانت على النحو التالي في أثناء الحصار :

م	السلعة	الوزن	السعر		العملة	ملاحظة
			من	إلى		
١	القمح	الغرارة	١٦٠٠	١٨٠٠	درهم	بدأ ارتفاع السعر منذ
٢	الدقيق	القنطار	٦٠٠	٩٠٠	درهم	شهر شوال الذي حاصر
٣	الخبز	الرطل	٣	٤	دراهم	فيه الخوارزمية دمشق
٤	الشعير	الغرارة	١٠٠٠	١٢٥٠	درهم	ثم زاد في أخر ذي
٥	اللحم	الرطل	أقل من	٧	درهم	القعدة حين اشترك في
٦	الباقلا	الرطل	درهم	١ر٢٥٠	درهم	الحصار الحلفاء
٧	الفحم الردي	الرطل	،،	٦	دراهم	الأيوبيون من بعلبك
٨	الزبيب	أوقية	١	١ر٥	درهم	والكرك وصرخد

(١) ابن العميد أخبار الأيوبيين ص ٣٤، وصرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة.. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص١-٤ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٤، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٤ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٣٧، وتذكر عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٩٨ «إن مدينة دمشق كانت خالية من الجنود للدفاع عنها» وليس هذا دقيقاً، وإلا لما احتاج الخوارزمية ومن معهم إلى حصارها مدة تزيد على ثلاثة شهور.

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٨، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٠، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨، الذهبي : العبر جـ٥ ص١٧٤، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥ ص٢١٦.

obeikandl.com

ويعلق المؤرخ ابن واصل على ارتفاع سعر القمح بالذات فيقول: «وهذا سعر لم يسمع بنظيره في عصر من العصور في بلد من البلاد»(١).

وبلغ من عنف الضائقة الاقتصادية التي عاشتها دمشق آنذاك أن بيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير(٢) واضطر صاحب دار كانت تساوي عشرة آلاف درهم إلى بيعها بمبلغ الف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة واحدة من القمح، فقامت عليه هذه الغرارة بعشرة الاف درهم(٣).

واشتد الجوع بالأهالي مع قسوة الحصار فاضطروا إلى أكل القطط والكلاب والجيف والميتة(٤) حتى أن بعض السجناء لما مات زميل لهم لم يجدوا مناصاً من أكله(٥).

ويعرض أبو شامة حالة خاصة في أثناء الحصار فيقول: «وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات، كانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج، شاهدتُ ذلك بعيني»(٦).

وكان طبيعياً أن يترتب على ذلك كله هلاك عدد من أهل دمشق بالجوع والوباء، حتى تكدست الموتى على الطرق، ونتنت الدنيا، فكان الإنسان إذا

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٣.
(٢) الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٠، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٤.
(٣) المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٢، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥.
(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣٠، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٤.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٣، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٣٧
(٦) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٨.

obeikandl.com

مرَّ بالجبل، وشمَّ روائح الناس مرض ومات، وضجر الناس من التغسيل والتكفين، فكانوا يحفرون الآبار ويرمون الموتى بعضهم على بعض(١).

ونتيجة للتدهور الاقتصادي المروع تفسخت القيم الاجتماعية وظهر الفساد، يقول المؤرخ المعاصر أبو المظفر قزاوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي: «وكانت الخمور دائرة، والفسق ظاهراً، والمكوس بحالها»(٢).

وبالطبع فإنه لاينبغى تحميل الخوارزميين وحدهم - وكانوا خارج أسوار دمشق - تبعة هذا التفسخ الاجتماعي الذي استشري داخلها، والذي لايكون ظهوره رد فعل مؤقت أو طارئ لمحنة عارضة إذ من المعروف أن الظواهر الاجتماعية لاتتكون إلا بصورة تدريجية ولا تتلاشى أيضاً إلا بنفس الطريقة.

سياسة نجم الدين أيوب :

استشعر السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدى الخطر الذي يحيط بموقفه ويهدد سلطانه في مصر، فقد اشتد الحصار حول مدينة دمشق من قبل الخوارزميين وحلفائهم، وهرب نوابه من كافة المواضع التي استولوا عليها - بعد موقعة غزة الثانية - من الناصر داود، وهي نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، ووقع مملوكه وقائد جنده على غزة الأمير ركن الدين بيبرس تحت تأثير الخوارزميين ومال إليهم وتزوج منهم كما سبق القول.

وجاء فصم عرى التحالف المعادي على رأس أولويات سياسة السلطان نجم الدين للتعامل مع هذا الموقف الخطير، فأرسل القاضي نجم الدين محمد

---

(١) الصفدي: تحفة ذوي الألباب حـ٢ ص١٣٠، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٢، ابن سباط : صدق الأخبار حـ١ ص٣٣٤.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٣، وانظر أيضاً: النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣١٤، الذهبي : العبر جـ٥ ص١٧٤، الصفدي: تحفة ذوي الألباب حـ٢ ص١٣٠.

ابن سالم النابلسي المعروف بابن قاضي نابلس - وكان متقدماً عنده - إلى الأمير ركن الدين بيبرس بغزة - ولم يكن قد تحرك منها بعد للمشاركة في محاصرة دمشق - فما زال يخادعه ويمنيه حتى قدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به[١] واستعاد السلطان نجم الدين بذلك السيطرة على الجيش الذي كان تحت قيادته بغزة.

وفي خطوة تالية نجح السلطان نجم الدين في استقطاب الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، وفصله عن التحالف المحاصر لمدينة دمشق، فأجابه[٢] وشرع يعد جيشه للمواجهة المرتقبة وضمَّ إليه جموعاً من العرب (البدو) والتركمان[٣] ولعله وجدها فرصة كي ينفض عن نفسه وسمعته عار المشاركة المخزية مع الصليبيين ضد إخوانه المسلمين في موقعة غزة الثانية.

واستكمالاً لنفس السياسة أرسل السلطان نجم الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب مساعدته في دفع الخوارزميين وحلفائهم عن دمشق، فأجابه مدفوعاً بالرغبة في التخلص من شرهم الذي لم تزل أثاره باقية في حلب وأعمالها منذ سنة ٦٣٨هـ، وسرعان ما خرجت العساكر الحلبية بقيادة الأمير شمس الدين لؤلؤ واجتمعت مع الملك المنصور عند حمص[٤] حيث وافت هناك نجدة من قبل مدينة حماة[٥].

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٦، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٥٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٥٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٨، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣١.

(٣) الذهبي : العبر جـ٥ ص١٨١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩، المقريزي: السلوك جـ١ق٢ ص٣٢٤.

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٠، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٣٨، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٥.

(٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٨.

ومن مصر خرج جيش السلطان نجم الدين أيوب متوجهاً إلى دمشق المحاصرة لعله يجتمع حولها مع حلفائه في آن واحد، فيدهمون معاً المحاصرين لها، فيتم تخليص عاصمة الشام وأهلها من الحصار المقيت.

ولم يكن التحالف المضاد الذي يقوده الخوارزميون بغافل عما يدبر له، فقد اجتمعت معهم على مرج الصُّفَّر (القريب من دمشق) جموع عدة شملت جيوش الصالح إسماعيل، وعز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد، والناصر داود صاحب الكركِ الذي بعث عساكره دون أن يشارك بنفسه في تلك المعمعة[١].

وفي المداولة التي جرت بين الخوارزميين وحلفائهم عند مرج الصفر تغلبت وجهة الخوارزميين في تحديد مكان المعركة، فقد قال مقدمهم الأمير بركة خان الخوارزمي مدفوعاً بكراهيته للملك المنصور إبراهيم صاحب حمص: «إن دمشق لاتفوتنا، والمصلحة قتاله عند بلده»[٢] فتمَّ الاتفاق على ذلك.

موقعة حمص ٦٤٤هـ:

بني الخوارزميون وحلفاؤهم خطتهم على الإفلات من مصيدة البقاء حول أسوار مدينة دمشق، ومن ثمة شرعوا في الاتجاه شمالاً صوب حلب فترتب على ذلك نتائج مهمة منها:

أ - رفع الحصار عن مدينة دمشق بعد استمرار دام ثلاثة شهور[٣].

---

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٨، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٨١ - ١٨٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٠.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٢، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٧.

ب- وصول المؤن إلى الأهالي فيها وانخفاض الأسعار(١) وعودة الحياة الطبيعية إلى ما كانت عليه قبل الحصار.

جـ- خروج عسكر دمشق الذي كان موجوداً داخلها في أثناء الحصار، وتوجهه إلى مدينة حمص منحازاً إلى التحالف الذي يقوده صاحبها الملك المنصور إبراهيم(٢). .

وفي نهاية المطاف التقى الفريقان على نهر القصب بظاهر مدينة حمص - وهي منزلة قبلي حمص على مرحلة منها - في أول المحرم سنة ٦٤٤هـ فأسفر اللقاء عن هزيمة الحلف الذي يتزعمه الخوارزميون(٣) وترتب على ذلك نتائج مهمة منها:

أ - انكسار الخوارزميين وتفرق شملهم ووقوع نسائهم سبايا وأموالهم غنائم في أيدى أعدائهم(٤) وتعرض جماعة كبيرة منهم للأسر حُمِلوا إلى حلب(٥) ومصرع زعيمهم الأمير حسام الدين بركة خان(٦) فجرى الطواف

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٧٨، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٣.

(٢) الذهبي: العبر جـ٥ ص ١٨١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٤، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٧٨، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٤، ويخالف المؤرخ ابن خلدون في كتابه العبر جـ٥ ص٣٥٨، إجماع المؤرخين في تحديد مكان المعركة فيجعله في دمشق، وليس هذا صحيحاً.

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٧٨، الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣١، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٨.

(٥) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٤ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥، ويذكر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٤، وينقل عنه الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٠ ص٦٢١ «أن بركة خان كان أحد خانات الخوارزمية الأربعة، وكان أصلحهم في الميل إلى الخير والرفق بالناس»..!!

obeikandi.com

برأسه منصوباً على رمح في موكب حافل في شوارع حلب[١] ثم رفع فنصب بباب قلعتها[٢].

ب- فقد الصالح إسماعيل ممتلكاته وعلى رأسها مدينة بعلبك، فإنه بعد الهزيمة - لم يمكنه الدخول إليها خوفاً من أن يحاصر داخلها، ويؤخذ باليد أخذاً فيقتله ابن أخيه السلطان نجم الدين أيوب لما فعله بابنه المغيث[٣]

جـ- فرار الأمير عز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد ومن سلم معه من العسكر - بعد أن راحت أثقالهم ونهبت أموالهم، وعودتهم إلى حوران عرايا جياعاً[٤] ومن حوران سارع الأمير عز الدين أيبك إلى العودة إلى قلعته صرخد فاعتصم بها[٥] مترقباً ما سوف تسفر عنه الأحداث.

وفي الطرف المقابل الذي يضم تحالف السلطان الصالح نجم الدين أيوب والملك المنصور صاحب حمص والملك الناصر صاحب حلب أخذت نتائج المعركة شكلاً مغايراً اتضح في:

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٨.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦١، وانظر أيضاً ستيفن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٨ فهو يذكر العبارة التالية: وتحتم على الصالح إسماعيل أن يعود مرة أخرى إلى إقطاعه في بعلبك، وليس هذا القول صحيحاً فلم يكن بمقدوره فعل ذلك بعد الهزيمة التي أصابته عند مدينة حمص.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٠، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٨٢، ويذكر الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات جـ٩ ص٤٨٠ أن الأمير عز الدين صاحب صرخد هو مملوك الملك المعظم عيسى شقيق الملك الكامل اشتراه سنة ٦٠٧هـ، وترقى عنده حتى جعله أستاذ داره وكان يؤثره على أولاده حتى أنه أقطعه صرخد وقلعتها، وقد حصل له وحشة من الملك الصالح أيوب، فكان مع الخوارزمية لما كسروا عند حمص سنة ٦٤٤هـ.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٤.

أ- عودة الثقة بالملك المنصور صاحب حمص الذي نجح في إدارة المعركة ضد الخوارزميين وحلفائهم ولم يتوقف عند تحقيق النصر، وإنما سار ومعه عساكر حلب إلى بعلبك، فانضم إلى عساكر السلطان نجم الدين الذي كان نازلاً عليها، وحاصروها جميعاً[١] واستولى المنصور على ربض المدينة وسلمه إلى اثنين من كبار قواد عسكر مصر هما الأميران ناصر الدين القيمري، وجمال الدين هارون، وعاد إلى حمص حيث ودع هناك عسكر حلب[٢] العائد إليها بعد نجاح مهمته.

ب- بروز المكانة السياسية للملك الناصر صاحب حلب الذي أصبح فيما بعد بضعة سنوات تالية - عقب وفاة السلطان نجم الدين أيوب في منتصف شعبان سنة ٦٤٧هـ- سلطان الشام دون منازع، فبالإضافة إلى المشاركة العملية المؤثرة لجيش حلب وإسهامه في تحقيق النصر على الخوارزميين وحلفائهم، فإنه استقبل بحلب في ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ خال أبيه الملك الصالح إسماعيل الذي كان قد فقد - بعد بعلبك - مدينة بصرى[٣] وهام على وجهه دون مأوى مع جماعة من الخوارزميين يتزعمهم الأمير الخوارزمي كشلوخان، فأكرم الملك الصالح وأجاره وأنزله في دار جمال الدولة الخادم، وقبض على كشلوخان والخوارزميين الذين كانوا معه وملأ بهم الحبوس[٤].

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٤، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٨٢.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٠، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٨.
(٣) الصفدي: تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٣١، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.
(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٢، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٢، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٦٠.

جـ- تمكن مُلْك السلطان الصالح نجم الدين أيوب لدمشق، واعتراف الأيوبيين في شمال الشام له بالسيادة وبالتالي توجه اهتمامه تجاه الفرنج[١] وكان الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص قد جاء إلى دمشق في خدمة السلطان نجم الدين فأنزل مكرماً في بستان أسامة وقام على خدمته الأمير حسام الدين بن أبي على نائب السلطان نجم الدين بدمشق[٢] كذلك تمكن قواد جيش السلطان نجم الدين من احتواء ممتلكات عمه الصالح إسماعيل في بعلبك وبصرى، حتى إنهم ساقوا أولاده تحت الحوطة إلى القاهرة[٣] لينظر السلطان في أمرهم.

وعلى هذا فقد حقّ لنجم الدين أيوب أن يحتفل بذلك كله وأن تزدان القاهرة له أياماً عديدة وبخاصة القلعتان الجبل والروضة[٤].

نهاية الخوارزميين :

أسفرت معركة نهر القصب عند حمص في المحرم سنة ٦٤٤هـ عن هزيمة الخوارزميين ومقتل عدد كبير منهم على رأسهم مقدمهم الأمير بركة خان،

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٨، ويظهر أن هذه السيادة كانت أسمية فالملك الناصر صاحب حلب قد رفض طلب السلطان نجم الدين بأن يرسل إليه عمه الصالح إسماعيل، ورد رسوله قائلاً : «كيف يحسن بي أن يلتجئ إليّ خال أبي، وهو كبير البيت، وأسيره إلى من يقتله، فلما علم السلطان نجم الدين بذلك تألم وسكت عن طلبه، وكان في غاية الحنق عليه لما فعله بابنه الملك المغيث .. انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٠، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٥.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢٠، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٩.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٤، الذهبي : العبر جـ٥ ص١٨٢.

(٤) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٥، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٥٣؛ ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٦.

نهاية الخوارزميين
حمص - الكرك
(٦٤٤هـ)

طرابلس
حمص
جبيل
بعلبك
بيروت
نهر بردى
دمشق
داريا
الغوطة
صيدا
شقيف أرنون
صور
بانياس
مرج الصفر
هونين
حوران
الجولان
صفد
صرخد
عكا
حطين
حيفا
طبرية
اليرموك
عثليث
قيسارية
كوكب
عين جالوت
بيسان
بصرى
عجلون
نابلس
يافا
البلقاء
الصلت
القدس
الخليل
عسقلان
غزة
العريش
الكرك

obeikandl.com


obeikandl.com

ووقوع جماعة كبيرة منهم ومن نسائهم في الأسر حيث جرى إرسالهم إلى مدينة حلب عند الملك الناصر صاحبها، ثم انضم إلى هؤلاء الأسرى في ربيع الآخر من نفس السنة جماعة أخرى من الخوارزميين على رأسهم الأمير كشلوخان كما سبق القول.

ويبدو أن الملك الناصر صاحب حلب قد ضاق بهؤلاء الخوارزميين المأسورين في حبوسه لما يتطلبه الاستمرار في حبسهم من مؤنة اقتصادية هو في غنى عنها، ولكراهية الأهالي لهم في مدينة حلب خاصة، ولصعوبة الاستفادة بهم لديه في أعمال مستقبلية، ولما كان عازفاً عن قتلهم، فقد اطلقهم فتوجهوا من حلب إلى الشرق حيث نزلوا مدينة حرّان[١] إقطاعهم القديم في بلاد الجزيرة.

ولم يكن وجودهم في حرّان أمراً مرغوباً فيه لكراهية الأهالي هناك لهم، وللضعف الذي أصابهم، فقرروا الرحيل عن حرّان، فاجتازوا نهر الفرات، وتوجهوا شمالاً إلى معسكرات المغول، فعملوا في خدمتهم[٢].

وبالطبع لم يجد المغول غضاضة في الاستعانة بهؤلاء الخوارزميين، فهم أي المغول كانوا قد نجحوا تحت قيادة بايجونوين في إخضاع بلاد سلاجقة الروم لهم بعد معركة (كوسة داغ) أي الجبل الأقرع في المحرم سنة ٦٤١هـ[٣]، وفرضوا عليها الضرائب الثقيلة، وكانوا يدركون مدى العداء الذي يكنه

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٤، ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩٨، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٣٠٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٩، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٨٧، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٢، العريني : المغول ص ١٨٣.

الخوارزميون لسلا جقة الروم منذ أن اضطروهم قسراً إلى الفرار من الأناضول سنة ٦٣٤هـ.

أما الخوارزميون الذين فروا عقب الهزيمة في حمص إلى حوران مع الأمير عز الدين أيبك المعظمى، فإنهم تجمعوا – بعد أن انضم إليهم شتاتهم من هنا وهناك، ثم ساروا إلى بلاد القدس الشريف والساحل وعاثوا فيها فساداً وأخربوها(١).

ومضت جماعة من هؤلاء الخوارزميين إلى البلقاء، وأعلنوا ولاءهم للملك الناصر داود الذي كان قابعاً في الكرك يترقب ما سوف تسفرعنه الأحداث، فتوجه إليهم، وانعم عليهم وتزوج منهم واستخدمهم وأسكن عائلاتهم الصلت(٢).

واحتذى بالناصر داود في موقفه من الخوارزميين الأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صرخد(٣) ومن ثمة فقد سار الخوارزميون إلى نابلس فاستولوا عليها(٤) وزاد ذلك من شعور الناصر داود بقوة شوكته فاطمعته نفسه في الاستيلاء على البلاد المجاورة من أيدي نواب الصالح نجم الدين أيوب(٥).

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١.

(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٩، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٨٢والبلقاء كورة في شرقي الأردن وقاعدتها حُسْبَان، انظر أبا الفداء: تقويم البلدان ص ٢٢٧ والقلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص١٠٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠ – ص٧٦١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق١ ص٣٢٤، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٩.

(٥) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٥.

وأمام هذا التحدى الخطير اضطر السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى إخراج عسكر مصر إلى الشام وجعل قيادته للأمير فخر الدين ابن الشيخ[١] فلما وصل هذا العسكر إلى غزة عاد من كان بنابلس من ا لخوارزميين إلى الصلت[٢].

وفي خطوة تالية تحرك ابن الشيخ بعسكره من غزة إلى نابلس متوجهاً صوب الخوارزميين في الصلت، فتصدى له عسكر التحالف المشترك بين الملك الناصر داود، والأمير عز الدين أيبك المعظمي والخوارزميين، والتقى الطرفان عند مدينة حُسبان بالبلقاء في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ، فانهزم جيش التحالف وتبدد شمله[٣] وترتب على ذلك نتائج مهمة منها:

أ - فرار الناصر داوود وعودته جنوباً مع أعيان ا لخوارزميين إلى حصن الكرك واعتصامه به[٤].

ب- فرار الأمير عز الدين المعظمي وعودته شمالاً إلى قلعته صرخد واحتمائه بها[٥].

جـ- تعرض الخوارزميين لنكبة مريرة، فقد قام الأمير ابن الشيخ ومعه عسكر مصر بإحراق مدينة الصلت التي كانت مستقراً لعائلاتهم، ورفض الناصر داود - بعد الهزيمة - استيعاب غالبيتهم في حصن الكرك أو الربض المتصل به[٦] فأصبحوا بذلك تحت رحمة عسكر مصر.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٢ - ٣٦٤، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٨٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٦.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١.
(٣) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص ٣٢٥.
(٤) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٥.
(٥) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٢١، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٩.
(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٦٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١.

ء – استكمال بسط نفوذ السلطان الصالح نجم الدين أيوب على جنوبي الشام كله وتعيين نواب له فيه، وشمل ذلك ما كان بيد الملك الناصر داود من ممتلكات وهي القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء[١] .

وأخيراً رأى الأمير ابن الشيخ إنهاء مهمته في القضاء على الخوارزميين، فمضى إلى حصن الكرك وخرب ما حوله واشتد في حصاره، فبعث إليه الملك الناصر داوود يستعطفه[٢] فوقع الاتفاق على أن يسلم إليه من عنده من أعيان الخوارزميين، فتسلمهم منه ورحل عنه وهم في خدمته[٣] .

ويبدو أن الأمير ابن الشيخ – بعد أن تيقن من عجز الخوارزميين تماماً – قد رق قلبه لمن تبقى منهم فأحسن إليهم وخلع عليهم وطيّب قلوبهم، واستصحبهم معه[٤] .

وهكذا انتهى الأمر عملياً بالنسبة للخوارزميين كقوة عسكرية ذات تأثير سياسي في الشرق الأدنى الإسلامي، فقد انقطعت منهم جماعة[٥] وتفرقت جماعة أخرى في الشام وخدموا به[٦] ودخلت جماعة منهم إلى مصر وخدموا بها[٧] .

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٥.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢١.

(٤) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٢١.

(٥) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٧٥، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٥٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٦.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٦، أما ابن خلدون في العبر جـ٥ ص٣٥٨ فيقول: وذهب أثرهم عن الشام.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٦، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٩.

الخاتمة

جاء انحدار الخوارزميين إلى الشرق الأدنى الإسلامي عقب مصرع سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي في جبال الأكراد في منتصف شهر شوال سنة ٦٢٨هـ ناتجاً عن الضغط المغولي المتواصل من غربي إيران وبالتحديد من إقليم «موقان».

وفي الحقيقة لم يكن الخوارزميون الذين تحركوا نحو بلاد الأناضول أو الجزيرة أو الشام يملكون جيشاً نظامياً كبير العدد أو العتاد، غير أن حالة التمزق السياسي التي أسهمت فيه كل القوى السياسية المعاصرة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي وعلى رأسها سلاجقة الروم والأيوبيون والأراتقة والمواصلة بل والخلافة العباسية نفسها قد جعلت من هؤلاء الخوارزميين قوة عسكرية استراتيجية ذات ثقل سياسي مؤثر، ومن ثمة تسابقت كل هذه القوى على اجتذابهم إليها ليكونوا سنداً لها في مواجهة القوى الأخرى.

وقد أفاد المغول كثيراً من حالة التمزق تلك حتى إنهم نجحوا في النهاية في إخضاع بلاد سلاجقة الروم لسلطانهم سنة ٦٤١هـ، وفي تهديد بلاد الجزيرة وشمالي الشام وممتلكات الخلافة العباسية في أربل وشهرزور وبغداد نفسها تهديداً مباشراً.

أما الصليبيون في الشام - وكانوا بدورهم ممزقين سياسياً بأثر الخلافات الداخلية فيما بينهم - فكانوا يعتقدون أنه لا أحد من القوى السياسية المجاورة لهم بوسعه تهديد كيانهم الراسخ، وكيف يكون ذلك وقد تسابق حكام مصر والشام على خطب ودهم والتحالف معهم، ومن ثم كانت مهاجمة الخوارزميين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه أمراً مفاجئاً أذهلهم وأرغمهم على إعادة النظر في اعتقادهم السابق، فسارعوا بتوجيه الدعوة إلى البابا وملوك غربي أوربا، أملاً في استعادة بيت المقدس من المسلمين.

أيا كان الأمر، فقد أكد الخوارزميون رغم سقوطهم المروع سنة ٦٤٤هـ على حقيقة التمزق الإسلامي في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ المسلمين في الشرق الأدنى. كما نبهوا القوى السياسية في مصر وا لشام آنذاك إلى أهمية التحالف الفعلي فيما بينها دون الاعتماد على غيرها من القوى الخارجية.

وقد استفادت مصر على وجه الخصوص من تلك التجربة القاسية وكان آية ذلك نجاحها في دحر الحملة الصليبية السابعة بقيادة القديس لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ.

بقي أن نذكر أن هؤلاء الخوارزميين كأشخاص لم يندثروا تماماً فقد كان منهم من صنعوا – فيما بعد – تاريخ الشرق الإسلامي كله أو أثروا فيه بشكل كبير، ويأتي على رأس هؤلاء السلطان المظفر قطز[١] قاهر المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، والأميرة إلتطمش بنت مقدم الخوارزمية بركة خان[٢] وكان الأمير بيبرس البندقداري – قبل أن يصبح سلطاناً على مصر – قد تزوجها في أثناء وجوده بالشام بعد فراره من مصر عقب اغتيال أستاذه فارس الدين أقطاى في قلعة الجبل في شعبان سنة ٦٥٢هـ، فانجبت له أكبر أبنائه السعيد بركة خان في صفر سنة ٦٥٨هـ بشبين القناطر بقليوب في مصر[٣] وقد أصبح هذا سلطاناً عقب وفاة أبيه في المحرم سنة ٦٧٦هـ، ومنهم أيضاً الأمير بدر الدين بن بركة خان خال الملك السعيد بركة خان وناصحه ومرشده في أثناء حكمه وبخاصة في فترة صراعه مع كبار أمراء أبيه السلطان الظاهر بيبرس[٤].

---

(١) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٧٩ – ٤٨٠، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٨ ص٣٩–٤٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٨٥.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ٩ ص٣٥٣.

(٣) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٨ ص٢١٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٦٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٦١.

(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٩٦، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٦٤٥ – ٦٤٦، العيني: عقد الجمان جـ٢ ص١٨٦.

obeikandi.com

وهكذا نرى أن أعمال الخوارزميين لم تكن كلها سيئة فظة، فقد كان في بعضها لمحات إيجابية، ومن ثمة ينبغى أن نحكم عليهم بمقياس عصرهم، وفي ظل ظروف حياتهم التي قذفت بهم خارج موطنهم الأصلى فاضطرتهم الحاجة وضنك العيش إلى ارتكاب كثير من الجرائم التي لايمكن اغتفارها أو نسيانها، وبخاصة في حق إخوانهم المسلمين في بلاد الجزيرة والشام.



obeikandl.com

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

* **ابن الأثير** : عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم (ت / ٦٣٠هـ)

١- الكامل في التاريخ ، الطبعة الثانية دار صادر بيروت سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

* **ابن تغري بردي** : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت / ٨٧٤هـ)

٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

* **ابن الجوزي** : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت / ٦٥٤هـ)

٣- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد الدكن سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

* **الحسيني** : صدر الدين على بن ناصر (ت / ٦٢٢هـ)

٤- أخبار الأمراء والملوك السلجوقية المعروف بزبدة التواريخ، الطبعة الثانية، نشر دار اقرأ، بيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

* **الحموي** : أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف.

٥- التاريخ المنصوري، الطبعة الأولى، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ١٩٩٠م.

* **الحنبلي** : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت / ١٠٨٩هـ)

٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الطبعة الأولى منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت (بدون تاريخ).

* **الحنبلي**: أحمد بن إبراهيم (ت / ٨٧٦هـ)

٧- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة سنة ١٤١٥هـ/ سنة ١٩٩٦م.

* **ابن خلدون** : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت/ ٨٠٨هـ)

٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الأولى ، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر (بدون تاريخ).

* **الدواداري** : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت/ ٧٣٦هـ)

٩- كنز الدرر وجامع الغرر، الطبعة الأولى، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني لآثار القاهرة سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

* **الذهبي**: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت/ ٧٤٨هـ)

١٠- العبر في خبر من غبر، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

* **ابن سباط** : حمزة بن أحمد بن عمر (ت/ ٩٢٦هـ)

١١- صدق الأخبار ، تاريخ ابن سباط، طرابلس لبنان سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

* **أبو شامة** : شهاب الدين أبو أحمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت/ ٦٦٥هـ)

١٢- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف «بالذيل على الروضتين» الطبعة الأولى نشر مكتبة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

* **الصفدي** : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت/ ٧٦٤هـ)

١٣- الوافي بالوفيات ، الطبعة الأولى، دار نشر فرانز شتانير، بفيسبادن، ألمانيا سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٤- تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا دمشق سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

* **ابن العبري** : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون **(ت/ ٦٨٥هـ)**

١٥- تاريخ الزمان ، الطبعة الأولى ، منشورات دار الشرق، بيروت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٦- تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

* **ابن العديم** : كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله **(ت/ ٦٦٦هـ)**

١٧- زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشر وتحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق سنة ١٩٦٨م.

* **ابن العميد** : المكين جرجس

١٨- أخبار الأيوبيين، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (بدون تاريخ).

* **أبو الفدا** : عماد الدين إسماعيل بن نور الدين أبي الحسن **(ت/ ٧٣٢هـ)**

١٩- تقويم البلدان ، الطبعة الأولى، دار صادر بيروت (بدون تاريخ).

٢٠- المختصر في أخبار البشر، الطبعة الأولى، المطبعة الحسنية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

* **ابن الفوطي**: كمال الدين أبو الفضل عبد الزراق بن تاج الدين أحمد **(ت/ ٧٢٣هـ)**

٢١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، الطبعة الأولى: مطبعة الفرات، بغداد سنة ١٣١٥هـ/١٩٣٢م.

* **ابن كثير** : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر **(ت/ ٧٧٤هـ)**

٢٢- البداية والنهاية في التاريخ، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

* **المقريزي**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي **(ت/ ٨٤٥هـ)**

٢٣- السلوك لمعرفة دول الملوك، الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٢م.

obeikandi.com

* **النسوي** : نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشئ (**ت/ ٦٤٢هـ**)

٢٤- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، الطبعة الأولى، نشر دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

* **ابن واصل** : جمال الدين محمد بن سالم (**ت/ ٦٩٧هـ**)

٢٥- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

* **ابن الوردي** : زين الدين عمر (**ت/ ٧٤٩هـ**)

٢٦- تتمة المختصر في أخبار البشر، الطبعة الأولى، مطبعة الوهابية القاهرة سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م.

ثانياً : المصادر الجغرافية

* **الحميري** : محمد بن عبد المنعم

٢٧- الروض المعطار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية، دار السراج بيروت سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

* **الإدريسي** : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحموي الحسني.

٢٨- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (بدون تاريخ).

* **ابن شداد** : عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (**ت/ ٦٨٤هـ**)

٢٩- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة، سوريا سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

* **القزويني** : زكريا بن محمد بن محمود.

٣٠- آثار البلاد وأخبار العباد، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

* **ياقوت الحموي**: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (**ت/ ٦٢٦هـ**)

٣١- معجم البلدان ، الطبعة الأولى، نشر دار صادر بيروت (بدون تاريخ).

ثالثًا : المراجع :

حسنين : عبد النعيم محمد (دكتور)

٣٢- سلاجقة إيران والعراق، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٧٠م.

حسين : حسن عبد الوهاب (دكتور)

٣٣- تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة من ٥٨٦ : ٦٩٠هـ/ ١١٩٠ : ١٢٩١م، الإسكندرية، نشر دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠م.

حلمى : أحمد كمال الدين (دكتور)

٣٤- السلاجقة فى التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

حمدى : حافظ أحمد

٣٥- الدولة الخوارزمية والمغول، الطبعة الأولى- دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

خليل : عماد الدين (دكتور)

٣٦- الإمارات الأرتقية فى الجزيرة والشام (٤٦٥- ٨١٢) هـ الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

شلبى : أحمد جاب الله (دكتور)

٣٧- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م.

صبرة : عفاف سيد (دكتورة)

٣٨- التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، الطبعة الأولى، نشر دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الصياد : فؤاد عبد المعطى (دكتور)

٣٩- المغول فى التاريخ، الطبعة الأولى، مكتبة الشريف والسعيد ، ممت للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٤٠- الحركة الصليبية فى العصور الوسطى، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

العبود : نافع توفيق (دكتور)

٤١- الدولة الخوارزمية، نشأتها وعلاقتها مع الدول الإسلامية، مطبعة الجامعة، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

العرينى : السيد الباز (دكتور)

٤٢- المغول، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

فهمى : عبد السلام عبد العزيز (دكتور)

٤٣- تاريخ الدولة المغولية فى إيران، الطبعة الأولى، دار المعارف بالقاهرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

القزاز : محمد صالح داود (دكتور)

٤٤- الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية، الطبعة الأولى، مطبعة القضاء فى النجف الأشرف، العراق ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

يوسف : جوزيف نسيم (دكتور)

٤٥- العدوان الصليبى على مصر، مطابع رويال: الإسكندرية ١٩٦٩م، الطبعة الأولى.

رابعًا : المصادر الفارسية :

ابن البيبى : ناصر الدين يحيى بن محمد بن على (ت/ ٦٨٤هـ)

٤٦- أخبار سلاجقة الروم «مختصر سلجوقنامة» نقله إلى العربية ، دكتور

محمد السعيد جمال الدين، جامعة قطر١٤١٥هـ، الدوحة ١٩٩٤م.

الجوينى : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت/ ٦٨١هـ)

٤٧- تاريخ مهانكشاى، نقله إلى العربية الدكتور محمد التونجى، نشر دار الملاح للطباعة والنشر، حلب ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

خواندمير : غياث الدين محمد بن همام (ت/ ٩٤٢هـ)

٤٨- دستور الوزراء، نقله إلى العربية الدكتور حربى أمين سليمان، نشر الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

الراوندى : محمد بن على بن سليمان بن محمد

٤٩- راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، الدكتور عبد النعيم محمد حسنين، الدكتورفؤاد عبد المعطى الصياد، نشر دار القلم بالتوفيقية، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

الهمذانى : رشيد الدين فضل الله بن عماد الله بن موفق الدولة (ت٧١٨/هـ)

٥٠- جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاى قاآن إلى تيمورقاآن) نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

عباس إقبال :

٥١- تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله إلى العربية الدكتور محمد علاء منصور، نشر دار الثقافة العربية، القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

خامسًا : المراجع الأوربية :

انتونى : بردج

٥٢- تاريخ الحروب الصليبية. نقله عن الإنجليزية إلى العربية الأستاذان أحمد غسان سبانو، ونبيل الجيزاوى، نشر دار قتيبة، دمشق ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

بارتولد : فاسيلى فلاديمير (دكتور)

٥٣- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، الطبعة الأولى.

باركر : أرنست

٥٤- تاريخ الحروب الصليبية، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى، الطبعة الرابعة، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت (بدون تاريخ).

براون : إدوارد جرانفيل (دكتور)

٥٥- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، نشر مطبعة دار السعادة، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، الطبعة الأولى.

بروى : إدارد (دكتور)

٥٦- تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)، الجزء الثالث، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الأستاذ يوسف أسعد، نشر مطبعة منشورات عويدان، لبنان ١٣٠٤هـ/ ١٩٦٥م، الطبعة الأولى.

بيشوف : تيودور

٥٧- تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشباء، ترجمة وتحقيق الدكتور شوقى شعث والأستاذ فالح بكور، الطبعة الثانية، دمشق ١٩٩٢م (بدون تحديد لدار النشر)

جروسيه رينيه

٥٨- جنكيزخان قاهر العالم، نقلة عن الفرنسية إلى العربية الأستاذ / خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له د/ سهيل ذكار، نشر دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٢ - ١٤٠٣هـ.

obeikandl.com

رنسيمان : ستيفن

٥٩- تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى، نشر دارالثقافة، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

ستوف : فلاديمير

٦٠- حياة چنكيزخان الإدارية والسياسية والعسكرية نقلة من الروسية إلى الإنجليزية الأمير د. س. ميزسكي، وترجمة عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور سعد بن محمد حذيفة الغامدى، نشر مؤسسة الرسالة شعبان سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

ف. يان. الصينى

٦١- چنكيزخان سفاح الشعوب، نقله عن الصينية إلى العربية الأستاذه صوفى عبد الله، نشر دار الهلال، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م، الطبعة الأولى.

فاميرى : أرمنيوس

٦٢- تاريخ بخارى، نقله إلى العربية الدكتور أحمد محمود الساداتى، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

لامب : هارولد

٦٣- چنكيزخان امبراطور الناس كلهم، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الأستاذ بهاء الدين نورى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، الطبعة الأولى.

لسترنج : كى

٦٤- بلدان الخلافة الشرقية، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الأستاذان

كوركيس عواد، بشير يوسف فرنسيس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الطبعة الثانية.

مايرِ : هانس إبرهارد

٦٥- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د. عماد الدين غانم، الطبعة الأولى، ليبيا، منشورات مجمع القاع للجامعات ١٩٩٠م.

Doshsson: m. le Baron

66- Histoire des mongols depuis tchingiwz khan jusqu a timour beyou temerian. Paris. 1824.

Howorth: Sir Henry.

67- History of the mongols. London 1876.

Schneider: Bret, E.

68- Mediaeval researches from Easten. Asiatic Sources. Lodon 1887.

Skrine: Francis henry and Ross: Edward

69- The Heart of Asia, London, 1899.

obeikandl.com